كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

حولية

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

مجلة علمية محكمة

يشرف على تحريرها

أ.د/ ناهد يوسف رزق يوسف — عميد الكلية

أ.د/ محاسن فكري عبد الخالق — وكيل الكلية

العدد الخامس والعشرون

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

للتواصل مع المجلة والاستفسارات

توجه جميع المراسلات باسم الأستاذ الدكتور: رئيس تحرير المجلة

على صفحة تواصل المجلة على موقع بنك المعرفة المصري على الرابط التالي:

https://bfsgm.journals.ekb.eg/journal/contact.us

أو البريد الإلكتروني للمجلة:

mgirlsmansoura@azhar.edu.eg

أو العنوان التالي:

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - شارع الشيخ محمد متولي الشعراوي - عزبة الشال - المنصورة - محافظة الدقهلية - مصر

البحوث المنشورة تعبر عن آراء الباحثين ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو القائمين عليها

الترقيم الدولي الموحد للطباعة

2735-5241

الترقيم الدولي الموحد الإلكتروني

ISSN: 2735-525X

النظرية السياقية

دراسة تأصيلية عند الجاحظ

(كتاب الحيوان نموذجًا)

إعداد

د. فاطمة البسيوني صيام

مدرس أصول اللغة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

النظرية السياقية دراسة تأصيلية عند الجاحظ (كتاب الحيوان نموذجا)

فاطمة البسيوني صيام
قسم أصول اللغة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الالكتروني : FatmaSiam2245.el@azhar.ed

ملخص البحث:

النظرية السياقية تعد من أهم مباحث الدرس اللغوي قديما وحديثا ؛ إذ إنها من أهم محاور علم الدلالة ذلك أن المعنى هو المعول عليه في تحديد المقصود من فحوى التراكيب وتوجيه معناها وبالنظر إلى تراثنا اللغوي نجد الحديث عن الوقوف على مراعاة غرض المتكلم، وأحوال المخاطبين ومقامات الحديث المختلفة، وكذا المعايير الفنية للعناية بالجانب النصي ... إلى غير ذلك من النصوص التراثية المبدعة التي عنيت بدراسة اللغة في استعمالها وفي إطارها التواصلي تنظيرا وتحليلا وتطبيقيا، كل هذا وغيره زخرت به مصنفات لغوييننا العرب القدامى والتي تثبت بحق أن موضوع السياق متجذر بأصوله وأسسه ومبادئه في الفكر التراثي العربي، وكان من بين هؤلاء العلماء الأجلاء الذين تنالوا السياق وأشبعوا الاعتماد عليه تنظيرا وتأصيلا وتطبيقيا وإحالة في مصنفاتهم اللغوية أبو عثمان عمرو الشهير بالجاحظ(ت:٢٥٥هـ) الذي أبدع في التأصيل لهذه النظرية السياقية قبل أن تصبح نظرية علمية ممنهجة على يد الغربيين في العصر الحديث، هذا واقتصر البحث على الوقوف على فكر الجاحظ فيما يتعلق بالنظرية السياقية وما يتصل بها من ظواهر لغوية كالاشتراك اللغوي، وهدف البحث من تلك الدراسة عدة غايات منها: إثبات ريادة ما انطوى عليه كتاب الحيوان من جهد لغوي تراثي فيما يتعلق بالنظرية السياقية، من خلال الوقوف على جهد الجاحظ اللغوي من آراء وتصورات وتعقيبات ومعالجات لنصوص لغوية تؤصل للنظرية السياقية، وما انفردت به النظرية العربية عن الطرح الغربي، وكذا الوقوف على مصطلحات الجاحظ في هذه النظرية ومقارنتها بمقررات الدرس اللغوي الحديث.

الكلمات المفتاحية: النظرية السياقية، الجاحظ، دراسة تأصيلية، كتاب الحيوان، الدرس اللساني.

Contextual theory , a fundamental study according to Al-Jahiz (The Book of Animals as an example).

Fatima Al-Basiouni Siam.
Department of Language Fundamentals, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
E.mail : FatmaSiam2245.el@azhar.ed

Abstract

Contextual theory is one of the most important topics in linguistic studies, ancient and modern. As it is one of the most important basics of semantics, because meaning is what is relied upon in determining what is intended from the content of structures and directing their meaning. Looking at our linguistic heritage, we find talk about taking into consideration the speaker's purpose, the conditions of the addressees, and the different positions of the hadith, as well as the technical standards for taking care of the textual aspect. ...And other creative heritage texts that were concerned with studying the language in its use. Study of the communicative framework theoretically, analytically and practically. All this and many others were abounded in the works of our ancient Arab linguists, which truly prove that the topic of context is rooted in its origins, foundations and principles in Arab heritage thought. Among those venerable scholars who mastered the context and relied on it theorizing, rooting, applying, and referring to their linguistic works was Abu Uthman Amr, known as Al-Jahiz (d. 255 AH), who excelled in establishing this contextual theory before it became a systematic scientific theory at the hands of Westerners in The modern era. The research was limited to examining Al-Jahiz's thought with regard to contextual theory and related linguistic phenomena such as linguistic co-occurrence. The aim of the research in this study was several objectives, including: proving the leadership of the heritage linguistic effort contained in the Book of Animals with regard to contextual theory, Through examining Al-Jahiz's linguistic effort, including opinions, perceptions, comments, and treatments of linguistic texts that establish the contextual theory, and what is unique to the Arabic theory from the Western approach, as well as examining Al-Jahiz's terminology in this theory and comparing it with the syllabuses of the modern linguistic study.

Keywords: Contextual theory, Al-Jahiz, Original study, The book of animals, The linguistic lesson

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام التامان الأكملان على أفصح العرب المبعوث رحمة للعالمين، سيد الخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فالنظرية السياقية تعد من أهم مباحث الدرس اللغوي قديما وحديثا؛ إذ إنها من أهم محاور علم الدلالة بل لب دراسة المعنى؛ فالمعنى هو المعول عليه في تحديد المقصود من فحوى التراكيب وتوجيه معناها، وإضاءة مجاهيل النصوص وكشف غموضها.

وبالنظر إلى تراثنا اللغوي العربي لعلمائنا ومشايخنا القدامى نجد الحديث عن الوقوف على مراعاة غرض المتكلم، وأحوال المخاطبين، وأدوات الفهم والإفهام خلال عملية التخاطب وتباين مقامات الخطاب وطرق توصيله تبعا لذلك، واختلاف الأحداث والملابسات المحيطة به، وتعدد ثقافات وطبيعة وعادات طرفي الخطاب وما له من أثر في إنتاج الدلالة، وكذا اختيار الألفاظ الملائمة للغرض من الخطاب، وتعدد مساقات الورود للألفاظ وما ينتج عنها من تحمل وجوه من التفسيرات وكذا تحديد المعايير الفنية التي يعول عليها في الحكم على الخطاب أو النص بالبيان والفصاحة من عدمه، ... إلى غير ذلك من النصوص التراثية المبدعة التي عنيت بدراسة اللغة في استعمالها وفي إطارها التواصلي تنظيرا وتحليلا، كل هذا وغيره زخرت به مصنفات لغويينا العرب القدامى والتي تثبت بحق أن موضوع السياق متجذر بأصوله وأسسه ومبادئه في الفكر التراثي العربي.

وكان من بين هؤلاء العلماء الأجلاء الذين تناولوا السياق، وأشبعوا الاعتماد عليه تنظيرا وتأصيلا وتحليلا وإحالة في مصنفاتهم اللغوية أبو عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ(ت: ٢٥٥هـ) الذي أبدع في التأصيل لهذه النظرية السياقية التي تنحو منحى الاتجاه التواصلي الذي يهتم بدراسة اللغة في إطارها السياقي بنصوص غاية في دقة دلالتها، ومبدعة في نظمها، وثاقبة في إحالتها، وأصيلة في بابها، قبل أن تصبح نظرية علمية ممنهجة على يد الغربيين في العصر الحديث.

هذا، وكان **سبب اختياري لهذا الموضوع** يرجع لوقت دراستي لأطروحة

الدكتوراة، فكان مما استرعى انتباهي أثناء معالجتي لبعض النصوص محل الدراسة -حينها- آراء الجاحظ السديدة فيما يتعلق ببعض مسائل اللغة، فعرضت ما بدا لي من أمر الجاحظ على شيخي الأستاذ الدكتور/ الموافي الرفاعي البيلي فأشار علي -فضيلته- بقراءة كتاب الحيوان للوقوف على الفكر اللغوي لهذا العالم المصنف الفذ المدقق، ورصد آرائه اللغوية؛ إذ لم ينل هذا المصنف من اهتمام الباحثين ما ناله باقي مصنفاته، لا سيما (البيان والتبيين) الذي عني عناية بالغة بدراسات كثيرة جدا في الدرس اللغوي واللساني في مختلف مناحيهما.

فعقدت العزم -مستعينة بالله تعالى - على قراءة كتاب الحيوان بأجزائه الثمانية برا وطاعةً لما أملاه علي شيخي ووجهني إليه، فوفقني الله عزوجل لقراءته فوجدته مصنفا حافلا بمظاهر متعددة من الآراء والتصورات والتأصيلات والتعقيبات والمعالجات اللغوية، خليقة بالتحليل والبحث والدراسة.

فكان توجيه شيخي - جزى الله فضيلته عني الجزاء الأوفى - لي توجيه خير ورشاد، كما أن مشورة فضيلته علي صادفت حاجة في نفسي من ميلي لمثل هذه الأفكار البحثية، فالوقوف على الجهد اللغوي - خاصة عندما يتصل هذا الجهد بدراسة نظرية تتخذ المعنى محور ارتكازها - لعقلية متعددة الرؤى الفكرية والاتجاهات العلمية كعقل الجاحظ، فإنها عندئذ تتيح للباحث امتلاك مزيد من أدوات البحث التي تمده بالقدرة على الاستقراء والوصف والتحليل والمقارنة والنقد، وذلك من خلال ما تفرضه طبيعة هذه الدراسة.

هذا واقتصر البحث على الوقوف على فكر الجاحظ فيما يتعلق بالنظرية السياقية وما يتصل بها من ظواهر لغوية كالاشتراك اللغوي، **وهدَفَ البحث من تلك الدراسة** عدة غايات كانت على النحو التالي:

أولا: التنقيب في واحد من المصنفات التراثية ألف في عصر الاحتجاج اللغوي، وإثبات ريادته فيما انطوى عليه من جهد لغوي فيما يتعلق بالنظرية السياقية من خلال عقد مقارنة بين نصوصه التأصيلية وبين ما توصلت إليه البحوث اللسانية الحديثة.

ثانيا: الوقوف على جهد الجاحظ اللغوي من آراء وتصورات وتعقيبات

واستشهادات ومعالجات لنصوص لغوية تؤصل للنظرية السياقية، وذلك من خلال استقصاء تلك النصوص وتحليلها ومناقشتها للوقوف على أي مدى كان تصور الفكر التراثي -متمثلا في فكر الجاحظ- لمفهوم وأسس ومباديء وعناصر هذه النظرية.

ثالثا: ملاحظة مصطلحات الجاحظ السياقية -التي تضمنتها نصوصه التأصيلية- وإسقاطها على مسالك ومقررات الدرس اللغوي الحديث.

وأما عن **الفرضيات التي طرحها البحث** لدراستها فتتضح من خلال الأهداف السابقة، وتكمن في:

- مدى عناية اللغويين العرب -متمثلا في فكر الجاحظ - بالنظرية السياقية.
- ما اشتملت عليه النصوص التأصيلية للجاحظ من مباديء أسست عليها تلك النظرية.
- إلى أي حد أحاط الفكر اللغوي - متمثلا في فكر الجاحظ - بعناصر السياق تأصيلا وتحليلا؟
- هل عرف الفكر السياقي العربي مصطلحات النظرية الغربية كما هي عليه في مناهج البحث الحديث ؟
- إلى أي مدى أعمل الجاحظ السياق في معالجاته اللغوية ؟
- هل وقفت التأصيلات الجاحظية على العناصر السياقية بشقيها اللغوي والمقامي، وفطنت لأثرها الدلالي، ووظفتها عند تفسير النصوص ؟
- هل ربط اللغويون القدامى عند دراستهم للغة بحياة ناطقيها الاجتماعية والثقافية والفكرية، أو كان دراستهم لها في معزل عن هذا الإطار التواصلي الاجتماعي؟
- هل هناك صلة بين السياق وبين بعض الظواهر الدلالية كظاهرة الاشتراك اللغوي؟
- في أي الجوانب تلاقت التأصيلات العربية والنظرية الغربية، وما الذي انفردت به هذه التأصيلات؟ أو بمعنى آخر هل هناك فرق بين أطروحات

النظرية الغربية وما اشتمل عليه الجهد التراثي للجاحظ في السياق ؟

- ما السبب وراء عدم ظهور التأصيلات العربية لفكرة السياق في التراث العربي - على الرغم من دقتها وشموليتها- في صورة نظرية علمية ممنهجة ؟

- هل كان لفكر الجاحظ الاعتزالي أثر في مصنفه الحيوان ؟ وماذا كانت آليات التأويل التي اعتمد عليها في الفهم والاستنباط والحجاج ؟

كل هذه الفرضيات والتساؤلات وضعها البحث نصب اهتمامه محاولا الوقوف على تفسيرات منطقية أثناء تحليله ومناقشته للنصوص التأصيلية للجاحظ محل الدراسة.

هذا ومن خلال البحث والاستقصاء وقف البحث على مجموعة من **الدراسات العلمية ذات صلة بالموضوع محل الدراسة**، وصلتها بفكرة البحث تتمثل في ثلاثة أنواع من الدراسة:

- **النوع الأول**: دراسات[١] بحثت السياق بحثا تطبيقيا من حيث الوقوف على الأثر الدلالي لعناصره في توجيه المعنى على مستويات اللغة الأربعة، وكانت كتب التفسير والحديث - بصفة خاصة- ميدانا تطبيقيا رحبا لمثل هذه الدراسة، وهي بالمناسبة تختلف عن البحث محل الدراسة في الغاية والهدف والإجراء.

(١) وقفت على دراسات كثيرة في هذا الجانب أذكر من أحدثها على سبيل المثال لا الحصر: أثر السياق في دلالة الخطاب القرآني -سورة الأنبياء أنموذجا- أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص لكلية الآداب واللغات، جامعة العربي - تبسة (الجزائر) للباحثة/ نصر فريدة، ٢٠٢١م، وأثر السياق في الدلالة على المعنى في كتاب "المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داوود" للشيخ محمود خطاب السبكي (ت: ١٣٥٢هـ) رسالة مقدمة من الباحثة/ بشرى رجب رجائي لنيل درجة العالمية من كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة - جامعة الأزهر، ٢٠٢٠م، والسياق وأثره في الدلالة للمعنى في شرح المشكاة للطيبي (ت: ٧٤٣هـ) المسمى بالكاشف عن حقائق السنن، رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية للباحثة / سحر ناجي حافظ، في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - جامعة الأزهر، ٢٠٢٠م، والسياق وأثره في الدلالة للمعنى في شروح الجامع الصغير للسيوطي (ت: ٩١١هـ) من بدايتها إلى آخر حرف الراء، رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية للباحثة / أم كلثوم عبد الهادي الشبراوي، في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - جامعة الأزهر، ٢٠٢١م.

- **النوع الثاني:** دراسات[1] عنيت بمصنفات الجاحظ الأخرى، بالدرس والتحليل لا سيما كتاب (البيان والتبين) الذي حظي بدراسات تأصيلية وتطبيقية على مناهج ونظريات الدرس اللغوي قديما وحديثا، وهذا النوع من الدراسة - أيضا- لا يلتقي مع فكرة البحث في شيء من المادة المدروسة فنصوص الجاحظ - فيما ظهر لي - في مصنفه الحيوان خاصة فيما يتعلق بفكرة السياق أعمق وأشمل وأدق وأكثر تفصيلا منها في مصنفه البيان والتبيين.

- **النوع الثالث:** دراسات[2] اهتمت بدراسة التأصيل لفكرة السياق من خلال جهد اللغويين القدامى في مصنفاتهم التراثية ومقارنتها بالنظرية الغربية، وهذا النوع يلتقي مع البحث محل الدراسة في الغاية والمنهج، ويفترقان في المادة المدروسة، فهذه الدراسات وإن كانت عرضت لفكر الجاحظ التأصيلي في هذه

(١) وقفت منها على: ملامح التفكير السيميائي في اللغة عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص لجامعة قصدي مرباح - ورقلة (الجزائر) للباحث: عامر بن شتوح، ٢٠٠٩م.، والفكر العلاماتي عند الجاحظ مقاربة سيميائية لمفهوم البيان، أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص للطالب: سعيد إياون، كلية الأدب والعلوم الإنسانية - الجزائر، ٢٠١٠م، وملامح نظرية النص عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص في كلية الآداب واللغات، جامعة فرحات عباس - الجزائر للباحثة/ بشرى بوشلاغم، ٢٠١١م، والخطاب اللساني عند الجاحظ، أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص لكلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية و=الإنسانية، جامعة أم البواقي - الجزائري، للباحثة/ دلولة خلدون، ٢٠١٣م، والمصطلح اللساني عند الجاحظ في البيان والتبيين دراسة صوتية تطبيقية: أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير لكلية أبي بكر بلقايد - الجزائر، للباحثة / فلاحي سهام، ٢٠١٥م.

(٢) الدلالة السياقية عند اللغويين لـ: أد/ عواطف كنوش المصطفى، دار السباب - لندن، ط: (١) ، ٢٠٠٧م، وملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب -دراسة من منظور لساني- أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص للباحثة/ نعيمة بن ترابو لكلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضير -بسكرة- ٢٠١٠م، والنظرية الساقية في الدرس اللساني قديما وحديثا (دراسة مقارنة) أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص من الباحثة / ناريمان براح لكلية الآداب واللغات - جامعة أم البواقي - الجزائر، ٢٠١٥م، والمعنى بين التراث والنظرية السياقية الحديثة -دراسة مقارنة- أطروحة مقدمة لنيل درجة العالمية من الباحثة/ فاطمة بنت عيسى، لمعهد الآداب واللغات - الجزائر، ٢٠٢١م.

النظرية -حيث إنه من علماء اللغة المتقدمين، ومن رواد الفكر البلاغي العربي الثقات في القرن الثالث الهجري - إلا أنها جاءت قاصرة غير مستوفية لفكره السياقي لسببين:

- **الأول:** اتساع البيئة الزمنية والفئة المستهدفة لتلك الدراسة، حيث اعتمد هذا النوع على أكثر من عالم لغوي من النحويين والبلاغيين والأصوليين والمفسرين خلال فترات زمانية متباعدة إلى حد ما، وعليه فإن المساحة التي أفردت لتأصيل نصوص الجاحظ كانت غير كافية لاستيعاب وإبراز فكر الجاحظ التأصيلي في هذه النظرية.
- **الثاني:** اقتصار الدراسة[(١)] في التأصيل الفكري للجاحظ في كثير منها على نصوصه الواردة في مصنفه (البيان والتبيين) فقط، حتى من ضم إليه (الحيوان) اقتصر على نص أو نصين على الأكثر على سبيل الاستئناس والاستشهاد العابر، بينما البحث محل الدراسة اعتمد في التحليل والمناقشة والتأصيل على (٤٦) نصا لغويا - أو يزيد- يمثل فكر الجاحظ السياقي في الحيوان مستخدما في الجمع والاستقصاء والتحليل والمناقشة **المنهج الوصفي التحليلي.**

هذا **واقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث تحوي جملة من المطالب، تقفوها خاتمة وثبتان للمصادر والمراجع** والموضوعات، وتفصيلها كالآتي:

- **المقدمة،** وتشمل الحديث عن: تقديم لنظرية السياق العربية، وأسباب اختياري للموضوع، والهدف من دراسته، وفرضيات الدراسة، والدراسات السابقة عليه، ومنهج البحث في الدراسة، وخطة الدراسة، والصعوبات التي واجهتها.

(١) ينظر ما تناولته هذه الأطروحة (ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب) عن التأصيل لفكر الجاحظ في النظرية السياقية: من ص: ٢٤إلى ٢٨. ويراجع كذلك ما ذكرته هذه الأطروحة: النظرية السياقية في الدرس اللساني قديما وحديثا (دراسة مقارنة) تحت عنوان: من ملامح السياق عند الجاحظ من ص: ٤٠إلى ٤٧، ويلاحظ قلة المساحة المخصصة لدراسة فكر الجاحظ في الأطروحتين، كما اعتمد فيها بشكل رئيس على فكره في البيان والتبيين.

- **التمهيد**، وتضمن الحديث عن:
- الجاحظ ومصنفه الحيوان.
- أسس (آليات) التأويل في فكر الجاحظ الاعتزالي في الحيوان.
- نظريات المعنى.
- **المبحث الأول: التنظير لمفهوم السياق وعناصره عند الجاحظ**، ويشمل المطالب التالية:
- مصطلحات تعبر عن السياق وعناصره عند الجاحظ.
- محددات الدلالة (صور العناصر السياقية) عند الجاحظ.
- التواصل غير اللغوي (القرائن المقامية) عند الجاحظ.
- الشق الاجتماعي (المكون الاجتماعي/المنحى التداولي للغة عند الجاحظ.
- الجانب التطبيقي لتداولية الجاحظ ودراسته للغة في بيئتها الاجتماعية.
- الجانب اللغوي (النصي) للسياق عند الجاحظ.
- التركيب (اختلاف مساقات الورود) وأثره على دلالة الألفاظ.
- السياق وتفسير المفردة القرآنية عند الجاحظ.
- **المبحث الثاني: الاشتراك اللغوي عند الجاحظ**، ويشمل المطلبين التاليين:
- تأصيل لظاهرة الاشتراك اللغوي عند الجاحظ (صوره، سبب وقوعه).
- بحث الألفاظ التي تعددت دلالتها بفعل التركيب والاستعمالات المجازية.
- **المبحث الثالث: مواطن التلاقي بين تأصيل الجاحظ للسياق والنظرية الغربية.**

هذا ومن **الصعوبات التي واجهت البحث أثناء الدراسة:**

أولا- أسلوب الجاحظ وعقليته التي يغلب عليها الطابع المنطقي، والنزعة الاعتزالية الناشئة من عقيدته، هذه النزعة دفعت به - كما ذكر محقق (الحيوان) الشيخ عبد السلام هارون - " إلى مواطن شتى من نواحي الحجاج والجدل، وكأنما خلق الله كل رجل من أهل الاعتزال لسانا دائب

التصرف والعمل ... والكتاب معرِض طريف لهذه المنازعات الكلامية"[١] كل هذا فرض على البحث تكرار القراءة أكثر من مرة، مما تطلب التعامل مع كثير من نصوص الكتاب وقتا إضافيا للاستيعاب والفهم قبل القدرة على الشرح والتحليل والتوظيف.

ثانيا- سعة أجزاء الكتاب، وتشعب مجالات الحديث فيه[٢] من عرض لنصوص لغوية، وشواهد قرآنية وحديثية وشعرية، وسردد لقصص وأمثال وحكم، ومسائل كلامية، وطبية، وجغرافية، وطبيعية، وتاريخية، وغيرها من المعارف التي تجعل من مصنف الحيوان موسوعة علمية كبرى، ولا يخفى على أحد أن هذا التعدد العلمي والفكري للمادة العلمية للكتاب يجعل استقراء النص اللغوي واستنباط ما فيها من فكر لغوي في موضوع معين أمرا ليس باليسير.

ولكن على أي حال ... فقد أعان الله ويسر وسدد، فله الحمد أولا وآخرا على ما أولى وتفضل وأنعم.

وبعد ... فإني أشهد الله أني بذلت قصارى جهدي وقدر استطاعتى، فأسأله تعالى الإخلاص والقبول، وأدعوه -جل في علاه - أن يتجاوز عما به من زلل، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

الباحثة

(١) الحيوان: (٣٢/١) .

(٢) ينظر في ذلك حديث المحقق عن قيمة الكتاب: (٣٠/١، ٢٨، ٢٩) .

التمهيد

ويشمل:

- الجاحظ ومصنفه الحيوان.
- أسس (آليات) التأويل في فكر الجاحظ الاعتزالي في الحيوان.
- نظريات المعنى.

أولا: الجاحظ ومصنفه الحيوان

الجاحظ (مولده ونشأته وشيوخه ومناقبه ووفاته)[(١)]:

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري المعروف بالجاحظ ولد عام (١٥٠هـ) -على الأرجح- بالبصرة لأسرة فقيرة في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين فكانت نشأته في العصر الذهبي للدولة العباسية، فمدُنُها حينئذ كانت عامرة بالمدارس العلمية في سائر عواصم الدولة الإسلامية، كالمدرسة البصرية والبغدادية والكوفية والقرطبية، وحركة التأليف والترجمة والنظم والتدريس حينها كانت في نشاط وازدهار غير مسبوق، فـ"كان المعين فياضا مترعا، ... والعلم ولودا، وصاحبه كلما ارتوى منه عاد به في سبيل الظمأ، وحيثما شبع منه رجع به في سبيل الجوع"[(٢)] وبيئة علمية خصبة كهذه كان لها أكبر الأثر في بناء شخصية الجاحظ وتشكيل فكره، فكان للجاحظ منذ نعومة أظافره نزوع عارم إلى القراءة والمطالعة، وظل هذا النزوع ملازما له طيلة حياته، حتى إنه فيما اشتهر عنه لم يكن يقنع بقراءة الكتاب والكتابيين في اليوم الواحد، بل كان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للقراءة والنظر.

وأخذ الجاحظ العلم - بجانب مطالعته الواسعة للكتب - عن أئمة في اللغة كأبي عبيدة (ت: ٢١٠هـ) والأصمعي(٢١٥هـ) وأبي زيد الأنصاري(ت: ٢١٥هـ) وأبي الحسن الأخفش(ت: ٢١٥هـ) وابن الأعرابي(ت: ٢٣١هـ)، وغيرهم من أئمة اللغة، كما تلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد، فـ" كَانَ مِنْ بُحُوْرِ العِلْمِ ، وَتَصَانِيْفُه كَثِيْرَةٌ جِدّا ...، وَكَانَ بَاقِعَةً فِي قُوَّةِ الحِفْظِ"[(٣)] وروي عنه أنه "لا يعلم أحد من الرواة

(١) ينظر في ترجمته: معجم الأدباء٢١٠١/٥، ومختصر تاريخ دمشق: ١٨١/١٩، وسير أعلام النبلاء: ٤١٣/٩، ولسان الميزان لابن حجر: ٣٥٥/٤، وطبقات المفسرين للداوودي: ١٨٢/١٦١٩/٢، وشذرات الذهب: ١٢٠/٢، والإعلام للزركلي: ٧٤/٥، ومقدمة تحقيق كتاب الحيوان للشيخ عبد السلام هارون: ٣وما بعدها، والمقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٥م ص: ٣٠

(٢) مقدمة تحقيق كتاب الحيوان: ٤

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤١٣/٩

وأهل العلم أكثر كتبا منه .[1]"

وظل الجاحظ منكبا على القراءة والتأليف إلى أن أدركته الشيخوخة، وأصيب بالفالج، وظل على هذا الحال من العلة والألم حتى وقعت عليه مكتبته -التي اعتاد أن يضعها حوله قائما كالحائط - فسقط مغشيا عليه بالبصرة عام (٢٥٥هـ.(

القيمة العلمية لكتاب الحيوان:

كان الجاحظ" أعجوبة الدنيا، تعرف ذلك إذا قرأت كتاب الحيوان ولمست ما يحتاج إليه من جهد، وما يتطلبه من وعي واسع، وانتباه دقيق"[2] حتى روي أنه قيل لأبي العيناء: "ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال: ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟"[3] وصاحبنا رجل جريء العقل، عنيف الفكر، فهو لا يقبل هذه النصوص على علاتها، بل يطرحها على المتحَن، ولا يطأطيء بفكره لها، وإما يصعد به عاليا ليرى وجه الحق فيها، وقلما ترك واحدا منها إلا تكلم فيه، وعرضه على الحجة"[4].

وقد منح الله -سبحانه وتعالى - الجاحظ "في القراءة والتألف اقتدارا نادرا، وصبرا عجيبا"[5] فصارت بذلك " كتبه تغزو الآفاق، وتطير في الدنيا، إلى أن كتب لها ما كتب"[6] قال عنها صاحب وفيات الأعيان: "كتب الجاحظ تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا"[7] وقراءتها "تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظَمها أحسن نظم، ورصفها أحسنَ رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوَّف ملل القاريء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزْل، ومن جكمة بليغة إلى نادرة طريفة، وله كتب حسان، منها كتب البيان والتبيين، وهو أشرفها؛ لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغُرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب؛ ما لو اقتصر

(١) لسان الميزان لابن حجر: ٣٥٥/٤
(٢) مقدمة المحقق: ١٢
(٣) جمع الجواهر: ٧٦/١
(٤) مقدمة المحقق: ٢٠
(٥) السابق: ١٢
(٦) السابق: ١٠
(٧) وفيات الأعيان: ٤٧٣/٣

عليه مقتصر لا كتفى به"[١] ومصنف الحيوان موسوعة علمية ومعلمة واسعة، وظاهرة تعكس ثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف، المتعددة الرؤى والاتجاهات الفكرية والعلمية، فقد "حوى الكتاب طائفة صالحة من حر الشعر العربي ونادره، وناهيك باختيار أبي عثمان، وإن أردت الأمثال فهو قد جمع لك منها القدر الكبير، أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر، وجدت ما ترتاح إليه نفسك وتطمئن"[٢] وفيه حديث عن أحوال العرب وعاداتهم، ومزاعمهم وعلومهم، كما أفاض القول في تفسير آيات القرآن الكريم، وحديث الرسول العربي، وفصل القول في بعض مسائل الفقه والدين والكلام والطبيعة والطب والجغرافيا، والمادة العلمية في كتاب الحيوان لم " تؤلف للقصد العلمي الخالص وإنما أريد بها أن تكون باحثة في اللغة أولا، فهي بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له، فهي تبحث في طبع الحيوان وخصائصه بحثا، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعاده، وإنما تجعل همها الأول والثاني هو اللغة، وقد يكون منها أن تبحث البحث العلمي، ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعة القول "[٣] فهو كتاب "ينطق بين يديك بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعا، ولكل مملكة من ممالكه، ولكل جنس من أجناسه، وهو فضل للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتب في الحيوان "[٤].

وأما عن مصادر الكتاب فقد استقى المصنف مادته من القرآن الكريم والحديث الشريف، وأمثال العرب، و"كان أكثر اعتماد الجاحظ على الشعر العربي، وبخاصة البدوي منه، ... تحدث عن الأنسي منه ولم يهمل الوحشي، بل أشرك بين هذا وذاك"[٥] كما كان لفكر الجاحظ العقدي وعقليته الحجاجية الجدلية أثر في بعض مسائل هذا الكتاب، هذا بجانب خبرته الشخصية وولعه الدائم بالبحث والسؤال عما يجهله.

(١) مروج الذهب: ١٢٣/٢
(٢) مقدمة المحقق: ٢٩
(٣) السابق: ١٦
(٤) السابق: ١٨
(٥) السابق ذاته.

ثانيا: أسس (آليات) التأويل في فكر الجاحظ الاعتزالي في الحيوان

الجاحظ كان "منذ بداية عهده في الدرس والتحصيل يطالع كثيرا من كتب الفلسفة، وكان أكثر ميله إلى الفلاسفة الطبيعيين، فكان يروج لهم، ويخلط عباراته بعباراتهم، وقد شغف بالاعتزال، ومضي يلازم أساتذته، ... فكان كلما اشتهر معتزلي لزم حِلَقَه، وكان من أشهرهم النظَّام(ت: ٢٢١هـ) الذي دفع الجاحظ دفعا للتزود من مذهبه الاعتزالي المعروف بالنظامية"[١] "وإليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، كان رأسا في الكلام والاعتزال ... أخذ عن ثمامة بن أشرس(ت: ٢٢٥هـ)، وأبى اسحق النظام"[٢].

وقد كان لهذا الفكر الاعتزالي أثر في كتاب الحيوان، بل كان مصدرا هاما وأصيلا من مصادره كما يقول محقق الكتاب: " والمادة الرابعة من موارد الكتاب، هي تلك المحاولة، وذلك الكتاب الذي ولده المعتزلة، وقد دفع بهم ذاك التيار العارم إلى مواطن شتى من نواحي الحجاج والجدل، وكأنما خلق الله كل رجل من أهل الاعتزال لسانا دائب التصرف والعمل، فهم إن فرغوا من الكلام في الصفات والخالق، وفي التعديل والتجوير، وفي الوعد والوعيد، فزعوا إلى الكلام في السانحة والخاطرة، وفيما يظهر للعين أنه دقيق مهين، والكتاب معرض طريف لهذه المنازعات الكلامية"[٣].

هذا وقد اعتمد الجاحظ في الحيوان على مصدرين عند التأويل والاحتجاج، هما:

١- العقل:

كثيرا ما كان يقدس الجاحظ دور العقل في الوصول إلى المعرفة، وجعله الأداة الأساس في الاستدلال، سائر ا في ذلك على المنهج الاعتزالي الذي يجعل العقل المرتكز الأساس والأول في التأويل والحجاج، فقد حرصوا على الأخذ بالأدلة

(١) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين: ٣٠.
(٢) شذرات الذهب٢/١٢٠.
(٣) مقدمة المحقق: ٢٢

العقلية والحجاجية في فهم النصوص واستكناه مقاصدها، إرساءً لأصولهم العقدية، ودعمًا لاتجاهاتهم وقناعتهم الفكرية، مقتنعين في ذلك بمبدأ " أن الله لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع فهو الأصل في هذا الباب" وربما يرجع السبب في جعل العقل من أهم المرتكزات الأساسية في العملية التأويلية عند المعتزلة هو أن " اعتماد المعتزلة على العقل كأحد الأسلحة الفكرية، إنما كانت تمثله ظروف تاريخية ضاغطة يقابلها طبيعة النصوص القرآنية التي قد تتناهى جدليتها مع العقل الإنساني الذي يخرج إلى فضاءات لم يطرقها الخطاب القرآني"[(١)].

هذا ومن النصوص التي ظهر فيها استناد الجاحظ على آلية العقل في الفهم والتأويل: -قوله عن النصبة أو الحال المشاهدة: "فموضوعُ الجسم ونَصْبته دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه ومنبهة عليه فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه قد شاركَ في البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق فمَنْ جَعَل أقسام البيانِ خمسة فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللّغة **وشاهدٌ في العقل** فهذا أحدُ قِسمَي الحكمة وأحَدُ مَعْنَيَيْ ما استخزنها الله تعالى من الوديعة"[(٢)].

- وكذا حديثه عن فضل العقل في الوصول إلى الحقائق والمعرفة: "ولأنّ أكثرَ الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأَشباحِ الماثلة والأجسامِ الجامدة والأجرامِ الساكنة التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ، وكُنوزِ الآداب وينابيعِ العلمِ **إلاّ بالعقلِ الثاقب اللطيف وبالنظرِ التامِّ النافذ**"[(٣)].

- وقوله عن الحديث عن شروط المترجم لكتاب الله "وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن، **وما يخصُّه العقل** مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم"[(٤)]فجعل ما يدل عليه العقل

(١) مباديء الفكر الاعتزالي في تفسير الكشاف للزمخشري - مبدأ العدل أنموذجا- مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، المجلد: ١٨، ع: ٢، ٢٠٢١م، ص: ٢٠٩.

(٢) الحيوان: ٤٥/١، ٤٤

(٣) السابق: ٤٥/١.

(٤) السابق: ٧٧/١.

قرينة يعتد بها في تخصيص التعميم

- وكثيرا ما كان يقدم الحجاج العقلي على المأثور، من ذلك قوله: "فإن قال لنا هذا القَول قائل وقال: بَيِّنُوا لي موضع إحالته ولا تحتجُّوا بتباعد اجتماع الأُمور به، فإنَّا نقر لكم بتباعدها، هل كان عندنا في ذلك قولٌ مقنع والدَّليل الذي تَثْلج به الصُّدور وهل عندنا في استطاعة النَّاس أن يولّدوا مثل ذلك **إلاَّ بأن يُعرَض هذا القول على العقول السليمة والأفهام التّامَّة وتردَّه إلى الرسُل والكتب**، فإذا وجدنا هذه الأمور كلها نَافيَة له كانَ ذلك عندنا هُوَ المقنع وليس الشأن فيما يظهر اللِّسانُ من الشكّ فيه والتّجويز له **ولكن ليردَّه إلى العقل فإنّه سيَجده منكراً ونافياً له إذا كان العقل سليماً من آفة المرض ومن آفة التخبيل**"[1].

- وقوله: " النار يابسةٌ غلطٌ وإنما ذهبوا إلى ما تراه العيون **ولم يغوصوا على مُغَيَّبَاتِ العِلَل**"[2] التي يهتدى إليها عن طريق إعمال النظر والتدبر العقلي.

٢- اللغة

كما كان للغة ومعهود الخطاب، واتباع سنن العرب في مجاري كلامها ومحاوراتها والاستشهاد بفصيح رواياتها الشعرية، والارتكان على توسعها في الاستعمالات المجازية - بصفة خاصة - حضور قوي ومرجعية أساسية في عملية التأويل عند الجاحظ في الحيوان خاصة عند تفسيره للمفردات القرآنية التي خالفت دلالتها ظاهر النص[3] وعليه فإن اللغة تعد المرتكز الثاني من المرتكزات التي اعتدها المعتزلة في عملية التأويل، على أن هناك من الباحثين من يرى " أن المعتزلة لم يكن منهجهم لغويا مثل السلف الصالح كابن عباس، وإنما كان منهجا عقليا، وما اللغة فيه إلا لإثبات ما حكم به العقل، ثم إن حاجة المعتزلة إلى دعم التأويل العقلي بحجة اللغة وشاهدها دفعهم إلى العناية بالبحث اللغوي

(١) الحيوان: ٣٧٩/٣.

(٢) السابق: ٣٥/٥.

(٣) مباديء الفكر الاعتزالي في تفسير الكشاف للزمخشري: ٢١٠.

والبلاغي"[١].

هذا ومن النصوص التي استند فيها الجاحظ للغة كمرجعية في الاستنباط الدلالي والتأويل ما ذكره عند تفسير ه لإحدى المفردات القرآنية، حيث قال: "ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللَّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ من عادات الناس، كان من فرَّ من الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيد، وإنما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ من ساعاتِ أعمال الناس وذلك هو النّهارُ دون اللّيل ... ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس ... "[٢] فاعتمد معهود الكلام هنا أساسا للتفسير، متخذا إياه تعليلا لخروج اللفظة عما يقتضيه ظاهر النص.

وكذا من النصوص التي تدل على ارتكازه على اللغة في رده على منكريه وتأوله الدلالي، وتذرعه باستعمالات العرب المجازية قوله عند تفسير إحد المفردات القرآنية: "(طعن ناس من الملحدين في آية النَّحل) وقد طعنَ ناسٌ من الملحدين وبعضُ من لا علم له بوجوه اللغِة وتوسُّع العرب في لُغتها وفَهْمِ بعضها عن بعض بالإشارة والوحي ... ومتى خرج العسلُ من جهةِ بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها، ومَنْ حمل اللغة علي هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخرُ العربِ في لغتهم وبه وبأشباهه اتسعت"[٣] ومثله قوله عند تفسيره لإحدى المفردات القرآنية: "لا نَدعُ ظاهرَ اللفظ والعادةَ الدالّة في ظاهر الكلام إلى المجازات"[٤].

من خلال ما سبق ظهر للبحث أن:

- التأويل الدلالي عند الجاحظ استند على ركنين أساسيين، هما: العقل واللغة،

(١) الوقوف عند تفسير المفردة القرآنية عند الجاحظ، وبيان آليات التأويل التفسيرية التي عول عليها، ومن ثم الوقوف على منهجه اللغوي وأثر فكره الاعتزالي على تفسيره لهذه المفردات يحتاج إلى أن يفرد في بحث مستقل قائم بذاته، انتويت القيام عليه إن قدر الله لي البقاء بمشيئته تعالى؛ لأن هذه التفسيرات القرآنية شغلت حيزا غير قليل في الحيوان، هذا بجانب ما انطوت عليه من تعقيبات وأحكام نقدية للجاحظ.

(٢) الحيوان: (٤١٣/٣) .

(٣) السابق: ٤٢٦/٥، ٤٢٥.

(٤) السابق: ٥٠/٧.

أي أن المزاوجة بين التدبر العقلي والاستدلال المنطقي (التفسير بالرأي) والاستشهاد اللغوي (الاستشهاد المأثور) كانا أساس منهج الجاحظ في الاستدلال والتأويل الدلالي في الحيوان.

- الجاحظ كثيرا ما كان ينبه على شرف العقل كآلية للاستدلال والاستنباط والوصول إلى مغيبات العلل.
- الجاحظ اعتمد في تقصيه للمعاني وتفسيراته منحى عقليا يتلاءم مع مبدئه الاعتزالي الذي يوظف الأدلة العقلية والمنطقية، وجعلها سبيلا لبلوغ الغرض التأويلي، وتعليلا لبعض الآراء الدلالية.
- الجاحظ عند تفسيره للمفردات القرآنية اعتمد أيضا على ثراء اللغة من خلال باب المجاز وتوسع العرب في هذا الباب كآلية تأويلية للخروج باللفظ عن مقتضى الظاهر.

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجاحظ نفسه صرح بالأدوات والأسس التي يرتكز عليها في استدلاله وتأويله ونقده، ونص عبارته: "وأنا أقولُ في هذا قَوْلاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقلْ أرجو لأني أعلمُ فيه خللاً ولكنّي أخذتُ بآدابِ وجوهِ أهلِ دعوتي وملَّتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب"[1].

فمرجعيته ترتكن على ثلاث ركائز أساسية، هي:

- **مذهبه الفكري والعقائدي (ويلاحظ أنه هنا قدم مباديء فكره العقدي على اللغة)**
- **لغته.**
- **عادات قومه وعرفهم.**

(١) الحيوان: ٣٦٧/٣.

نظريات المعنى

إن البحث في المعنى يعني به البحث "في طرق صياغته وإنتاجه وتأويله، ومن ثم تفسيره وإعادة إنتاجه وفق حاجات إنسانية ثقافية واجتماعية مختلفة "[١] فالمعنى هو " الجوهر الأساس للكلام، وعليه يبنى ويصبح مفيدا لتحقيق الوظيفة التواصلية للغة، وقد أدرك بعض اللغويين هذه الأهمية منذ وقت مبكر، فاتجهوا إلى دراسة دلالة الكلمات وجوهرها ومعانيها، ووضعوا لذلك نظرية جديدة تعنى بالمعنى ودلالاته، وجعلوها علما مستقلا بذاته، أطلقوا عليه (علم الدلالة) الذي عني بدراسة المعنى في كل حالاته، وشتى صوره، سواء في دلالة الكلمات أو سياقاتها"[٢] هذا وبرزت جهود في ميدان علم الدلالة في الدرس اللغوي الحديث أدت إلى ظهور نظريات جديدة حاولت الوصول إلى المعنى بطرائق متنوعة ومناهج متعددة لدراسة المعنى، من أبرز تلك النظريات: "النظرية الإشارية والتي ترى أن المعنى هو ما تشير إليه، لكن فكرة وجود كلمتين مترادفتين تشيران إلى المرجع نفسه يجعل العثور على جوهر المعنى غير دقيق، والنظرية التصورية ترى أن جوهر المعنى هو الصورة الذهنية وكان على هذه النظرية مجموعة من المآخذ؛ حيث إنها تفسر الأشياء الغامضة والمعاني بالأفكار والتصورات، والنظرية السلوكية ترى أن المعنى هو حصيلة علاقة لغوية نفسية بين المثير والاستجابة، لكنها أغفلت كثيرا من الأحداث التي لا يمكن قياسها لعدم قدرتها على انتاج استجابات أو ميولات، والنظرية السياقية استطاعت أن تجد حلا لدراسة المعنى وتجاوز مآخذ النظريات الموازية لها في ميدان نظريات دراسة المعنى، فتناولت دراسة المعاني وفق سياقاتها المتنوعة، سواء أكانت هذه الكلمات مبهمة المعنى في نفسها أم لا تحتوي على صورة ذهنية، أم منفصلة عن الاستجابات، فجميعها لها استعمالات خاصة بها إذا تم النظر إلى معناها في سياق ما "[٣].

(١) نظرية المعنى في الفكر النقدي عند العرب من الممارسة إلى للتنظير -دراسة تحليلية نقدية- دكتور/ عبد الفتاح جحيش كلية الاداب واللغات الجزائر ٢٠١٧م.

(٢) نظريات دراسة المعنى بين التراث اللغوي العربي والدرس اللغوي الغربي شافي محمد سيف، حوليات اداب عين شمس، المجلد ٤٨عدد يناير-مارس ٢٠٢٠م، ص: ٥٣١

(٣) السابق: ٥٣٠

وعليه فإن مناهج الدرس الحديث وضعت أربع نظريات لدراسة المعنى:

- النظرية الإشارية - النظرية التصورية

- النظرية السلوكية - النظرية السياقية

- وهناك - أيضا- النظرية التحليلية والتي تعنى بتحليل الألفاظ داخل الحقل الدلالي الواحد، وتبين العلاقات الدلالية التي تربط بين ألفاظ هذا الحقل.

وعلى أية حال فإن كل نظرية من هذه النظريات حاولت تفسير دلالات الألفاظ بإطار فكري معين وضابط مختلف، وبالمناسبة فإن هناك مآخذَ[1] وجهت لبعض الأسس والتصورات التي بنيت عليها هذه النظريات، هذا الانتقاد كان داعيا لظهور النظرية السياقية على يد العالم الإنجليزي (فيرث) الذي نظر إلى المعنى على أنه لا يظهر إلا في الاستعمال فقط، فالمعنى عنده وليد لحظة التواصل لا قبل.

ودراسة المعنى كان الهدف الذي قصده علماؤنا العرب في مصنفاتهم اللغوية وغير اللغوية، منطلقين في ذلك من وازعهم الديني لتفسير ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف، فظهرت كتب تفسر مجاز القرآن والحديث وتفسير غريبهما وإعرابهما، وكذا معاجم الألفاظ والموضوعات التي عنيت على اختلاف مناهجها بشرح ألفاظ اللغة، كل هذه التصانيف على اختلاف مادتها ووسيلتها إلا أنها اجتمعت لغاية واحدة، وهي الاعتناء بالمعنى، وكان من أكثر الطوائف العلمية اهتماما بدراسة المعنى الأصوليون، فالبحث في دلالات الألفاظ من مثل: دلالة المنطوق والمفهوم والإشارة والاقتضاء والإيماء من أهم البحوث التي بني عليها صرح علم أصول الفقه، وهذا الحضور القوي لهذه المباحث الدلالية في تلك المصنفات الأصولية والتفسيرية يفسره هذا الدافع الديني القوي لتفسير النص بغية استنباط الحكم الشرعي، فقراءة النص وتفسيره - وإن اشترك فيه كثير من أصحاب العلوم والفنون المختلفة-إلا أن إسهام المفسرين والأصوليين -بحكم طبيعة منهجهم وغايتهم -قد تميز بدقتها وكثرة تفاصيلها، خاصة فيما يتصل بمسائل الاجتهاد والتفسير والاستنباط الدلالي، كذا فإن البلاغيين اعتنوا عناية فائقة

(١) ينظر مناقشة تلك النظريات في: المعنى اللغوي دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقيا د/ محمد حسن جبل: ١٦٨ مكتبة الآداب ط: (٢) ، ٢٠٠٩م.

بدراسة اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما في أطر معيارية فنية، وللمناطقة -أيضا- جهود تراثية في دراسة المعنى حيث "تجد دراسات وإشارات كثيرة للمعنى في مؤلفات الفارابي، وابن سيده، وابن رشد، والقاضي عبد الجبار المعتزلي وغيرهم "[(١)] لذا فإن " من حق العلماء العرب المتقدمين أن نسجل لهم مبادرتهم إلى دراسة المعنى من حيث تحديد ماهيته، وما يتصل بهذا التحديد من علاقات وأبعاد، فلا يحق لأحد أن يدعي عليهم الغفلة عن هذا الجانب من الدراسة اللغوية أو إغفاله، ولا يقدح في ذلك تفرق مباحث هذه الدراسة في أثناء كتب الأصول والمنطق واللغة التي تناولوها، لأن أئمتهم كانوا - من ناحية- موسوعيين: تغطي دراساتهم شتى المجالات، فكانت المعلومات المشتركة حاضرة في أذهانهم، ولأنهم - من ناحية أخرى - كانوا يؤمنون بأن من حق كل علم أن تكون له مصطلحاته وزواياه الخاصة في تكييف المعلومات المشتركة"[(٢)].

هذا وقد صاغ أستاذنا الدكتور / جبل تعريفا للمعنى بأنه: "الصورة الذهنية لمسماه من حيث وضع اللفظ بإزائها"[(٣)] أي أن معنى اللفظ "هو الصورة الذهنية أو العقلية التي وضع اللفظ إزاءها - أي: ليقترن بها معبرا عنها، فهذه الصورة الذهنية هي المعنى؛ لأنها هي التي يقصدها المتكلم عندما يعبر عن شيء ورد في ذهنه، والتعبير يتم بكلمة أو بمجموعة من الكلمات أرصدت في الذهن مقابل صور مسمياتها التي اختزنت فيه، وبذلك يمكن التعبير عن مسميات غائبة بسبب صورها المختزنة"[(٤)] وفي المباحث التالية يكشف البحث اللثام عن الجهود التراثية من خلال فكر الجاحظ في مصنفه الحيوان لواحدة من تلك النظريات التي عنيت ببيان المعنى، وتحديد مقصدية الخطاب في إطار تواصلي.

(١) علم الدلالة لدكتور/ أحمد مختار عمر: ٢١
(٢) المعنى اللغوي: ١٥١
(٣) السابق: ٦٨
(٤) السابق: ٧٠بتصرف يسير جدا.

النظرية السياقية دراسة تأصيلية عند الجاحظ

(كتاب الحيوان نموذجًا)

المبحث الأول: التنظير لمفهوم السياق وعناصره عند الجاحظ.

المبحث الثاني: الاشتراك اللغوي عند الجاحظ.

المبحث الثالث: مواطن التلاقي بين تأصيل الحاحظ و النظرية الغربية.

المبحث الأول

التنظير لمفهوم السياق وعناصره عند الجاحظ

إن المستقريء لنصوص الجاحظ في مصنفه (الحيوان) بأجزائه الثمانية يجده قد أشبع هذه النظرية بشقيها اللغوي وغير اللغوي تأصيلا وتنظيرا قبل أن تصبح نظرية منهجية مكتملة على يد الغربيين في العصر الحديث.

فالمدقق في تلك النصوص التراثية للجاحظ في الحيوان يجدها قد انطوت على جوانب تأصيلية هامة تتعلق بأهم الأسس والمباديء التي تكونت منها تلك النظرية الغربية[(١)] بصورتها المنهجة التي عليها الآن في مناهج البحث اللغوي المعاصر، هذه المبادئ التي تقوم عليها تلك النظرية أساسها التعامل مع النص كلا واحدا متماسكا في إطار تواصلي، مع ضرورة الإحاطة بالظروف الاجتماعية والثقافية المصاحبة للخطاب وطرفيه، هذا المنحى التواصلي تضمنته تلك النصوص التراثية التي ذكرها الجاحظ في حيوانه، حيث وقف البحث على نصوص في الحيوان تؤصل لهذا المنحى التواصلي في بعده التداولي اللغوي والاجتماعي، كما تضمنت تلك النصوص ألفاظا تتفق في دلالتها ومفهومها مع ما تضمنته دلالة تلك المصطلحات السياقية الحديثة في النظرية الغربية التي جاء بها الدرس اللغوي الحديث، وبيانها كما يلي:

(١) ينفظر تفصيل القول في النظرية السياقية عند المحدثين في: اللغة والمعنى والسياق لجون لاينز، ترجمة د.عباس صادق، طباعة ونشر: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط: (١) ، ١٩٨٧م، النظرية السياقية في الدرس اللساني قديما وحديثا دراسة مقارنة لناريمان براح، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في كلية الآداب واللغات، جامعة العربي، الجزائر، ٢٠١٥م، ونظرية فيرث السياقية بين الأصالة والتجديد، أحمد إحيمدات، مجلة (الضاد) ماليزيا، ٢٠١٥م، والنظرية السياقية بين البداءة والحداثة دراسة وصفيةلـ: د/حازم علاوي، مجلة دواة، المجلد التاسع ع: (٧) ذو الحجة ٢٠٢١م، والسياق اللغوي في الدرس اللساني الحديث لغنية تومي، مجلة المخبر، الجزائر، ع: (٦) ٢٠١٠م، ملامح النظرية السياقية عند الإمام الشاطبي لعبيدة منيرة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع: (١٤) الجزء الثاني: ٢٠١٨م.

المطلب الأول

مصطلحات تعبر عن السياق وعناصره عند الجاحظ:

- النص الأول: قال الجاحظ:

"وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفت أماكنُه ودلائله، فإذا كان كذلك فإنَّما يعرف فضلُه بالمتكلّمين به، وبالحالات والمقالات وبالذين عُنُوا بالكلام، وهذه جملةٌ وتفسيرها يطول"[(١)].

- النص الثاني: قال الجاحظ:

"والكلمات في هذا الموضع- "ما نفدت كلمات الله"- ليس يريد بها بكذا القولَ والكلامَ المؤلَّفَ من الحروف، وإنَّما يريد النِّعَم والأعاجيب والصفات وما أشبه "[(٢)].

- النص الثالث: قال الجاحظ:

"و لكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل"[(٣)].

ومن خلال الوقوف على تلك النصوص يظهر أن الجاحظ أصل من خلالها لمفهوم السياق وعناصره على النحو التالي:

- ذكر الجاحظ أن الذي يؤثر في دلالة اللفظ، ويوجه معناها عدة عناصر:

١- المتكلم.

٢- الذي عني بالكلام (المخاطب).

٣- المقالات (سياق النص/ موضوع الحديث).

٤- الحالات / المقام (الشق الثقافي والاجتماعي الخاص بأطراف العملية

(١) الحيوان: (٣٠٦/١) .
(٢) السابق: (٢٠٩/١) .
(٣) السابق: (٣٦٩/٣) .

التواصلية)

وعبر الجاحظ عن: لفظ السياق بـ(المكان)، وبـ(الموضع). وعن لفظ السياق اللغوي بـ(المقال) وبـ(الشكل). وعن لفظ السياق غير اللغوي بـ(المقام)، وبـ(الحال)

وبناء عليه فإنه يكمن تعريف السياق عند الجاحظ بأنه مجموعة العناصر أو القرائن المقالية والمقامية التي تتوالى لتحدد دلالة الاسم، حيث إن هذه القرائن اللغوية وغير اللغوية يعتمد عليها بشكل رئيس في توجيه معنى النص، وتحديد دلالته على الوجه المرجو.

المطلب الثاني

محددات الدلالة (صور العناصر السياقية) عند الجاحظ

وأما عن صور تلك العناصر السياقية التي يعتمد عليها في تحديد الدلالة فتتضمنها النصوص التالية على النحو التالي:

- قال الجاحظ: "(وسائل البيان) وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام: لفظ وخطّ وعَقْد وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدِلُّ تَمْكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلالَة، وأُودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة ناطقةٌ مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة مخبرٌ لمن استخبَرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه"[1].

في هذا النص قسم الجاحظ طرق محددات الدلالة (صور التواصل السياقية) أو وسائل البيان -على حد تعبيره- إلى خمسة طرق، طريق اللفظ، وطريق الخط، وطريق العقد، وطريق الإشارة، وطريق الحال المشاهدة(النصبة) وهو بهذا التقسيم يجعل وسائل البيان - بصفة عامة - وسيلتين، وسيلة (محددات) لغوية، وأخرى غير لغوية، ثم استطرد في الحديث عن الصنف الثاني، وهو البيان (المحدد) غير اللغوي وهو (الحال المشاهدة) ووصفه بأنه يعرب عن نفسه، ومنبه عن حاله لمن استنطقه واستخبره، ثم مثل له بشواهد وقرائن حالية تصفه، فقال:

"كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللونِ عن سُوءِ الحال ... وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَل الأَرْضَ فقلْ: مَنْ شقَّ أنهارَكِ وغَرَسَ أشجارَكِ وجَنَى ثمارَكِ فإنْ لم تُجبكَ حِوارا أجابتْكَ اعتبارا، ... فموضوعُ الجسم ونَصْبته دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه ومنبهة عليه"[2] ثم استطرد في الحديث عنه قائلا: "ثُمَّ جُعِل للمستدِلِّ سببٌ

(١) الحيوان: (٣٤/١) .
(٢) السابق: (٣٥/١) .

يدلُّ به على وجوهِ استدلاله، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال، وسمَّوا ذلك بياناً "[١]

فهو هنا يتحدث عن (المستدل) كالأجرام الساكنة، والجمادات الخرس الصامتة، وكل ما لا يقدر أن يبين عن نفسه بدلالة لغوية من لفظ أو خط، فهو بنفسه وبحاله المشاهدة دليل حالي وسبب في الدلالة عليه، ويسمى هذا النوع من الاستدلال بيانا أيضا كالبيان اللغوي، **ثم جوز الاستدلال به في اللغة والعقل، فقال:**

"فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه قد شارَكَ في البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق، فَمَنْ جَعَل أقسام البيانِ خمسة فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللّغة، وشاهدٌ في العقل"[٢].

فالجاحظ أبدع في هذا النص عندما قسم محددات الدلالة على المعنى إلى محددات لغوية، ومحددات غير لغوية، والإبداع هنا يتأتى من هذا التصنيف الثنائي(اللفظي وغير اللفظي) لطرق بيان المعنى؛ ليعم بذلك المستدِل(الذي يقدر أن يبين ويصل للدليل بنفسه) والدليل الذي لا يبين بعبارات لغوية، والأبدع من هذا هو ذهابه إلى أن هذا التقسيم له مذهب في اللغة، وشاهد في العقل، إشارة منه هنا إلى أن القرائن العقلية والشواهد الحالية، وغيرها من عناصر الدلالة غير اللغوية لا تنفك بحال عما تنتجه دلالة النص اللغوية في تشكيل الدلالة المرادة فالبيان الذي تتم به عملية الفهم والإفهام متوقف على ربط المقال بما يقترن به من شواهد وقرائن مقامية متلبسة به ومؤثرة فيه، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: "فَلَا يُعْرَفُ الْمُرَادُ مِنْهُ حَقِيقَةً إِلَّا بِانْضِمَامِ قَرِينَةٍ إِلَى اللَّفْظِ، وَالْقَرِينَةُ إِمَّا لَفْظٌ مَكْشُوفٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وَالْحَقُّ هُوَ الْعُشْرُ وَإِمَّا إِحَالَةٌ عَلَى دَلِيلِ الْعَقْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وَقَوْلِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» وَإِمَّا قَرَائِنُ أَحْوَالٍ مِنْ إِشَارَاتٍ وَرُمُوزٍ وَحَرَكَاتٍ وَسَوَابِقَ وَلَوَاحِقَ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ وَالتَّخْمِينِ

(١) الحيوان: (٣٣/١) .
(٢) السابق: (٣٥/١) .

يَخْتَصُّ بِدَرْكِهَا الْمُشَاهِدُ لَهَا ... وَكُلُّ مَا لَيْسَ لَهُ عِبَارَةٌ مَوْضُوعَةٌ فِي اللُّغَةِ فَتَتَعَيَّنُ فِيهِ الْقَرَائِنُ "[1]

ومن ثم تبينن أن الوصول إلى دلالة الألفاظ عن طريق القرائن المقامية مذهب تجوزه اللغة ويعتمد عليه في تفسير كثير من المفردات القرآنية، والنصوص اللغوية، كما يتخذه العقل طريقا للاستدلال والمعرفة كما أصل لذلك الجاحظ.

(١) المستصفى للغزالي: (١٨٦) .

المطلب الثالث

التواصل غير اللغوي (القرائن المقامية) عند الجاحظ

ثم انتقل الجاحظ للحديث عن صورة من صور التواصل غير اللغوي، **قال فيها:**

"إنا نفهم عَن الفَرس والحمارِ والكلبِ والسِّنَّور والبعير كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره كما نفهم إرادةَ الصبيِّ في مَهْده، ونعلم - وهو من جليل العلم - أنّ بكاءَه يدلُّ على خلافِ ما يدُلُّ عليه ضَحِكُه، وحَمْحَمَةُ الفرَس عند رؤية المخلاة على خلاف ما يدلُّ عليه حَمحمتُه عند رؤية الحِجْر، ودُعاء الهِرَّةِ الهرَّ خلافُ دعائها لولدها وهذا كثير"(١).

فحديثه هنا عن صورة من صور التواصل غير اللغوي عند الصبي والحيوان، والتواصل هنا يعتمد في مجمله على الإيحات والانفعالات النفسية، والأداءات الصوتية والإشارات الجسدية المعبرة عما في النفس، وتصل للمتلقي بصورة ربما أبلغ من العبارات اللفظية.

هذا وما زال حديث الجاحظ مستمرا عن صورة من صور البيان غير اللفظي، وهي نوع من أنواع التواصل غير اللغوي يُحدد به المعنى عن طريق الإشارة، حيث قال عنها:

"فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأجفان، ولِيُّ الشِّفاهِ، وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه، وأبعدُها أن [تلوح] بثوبٍ على مقطع جبل تُجاهَ عينِ الناظر"(٢).

فالجاحظ عرَّج هنا على نوع بياني غير لغوي، وهو الحركات الجسدية التي تعبر عن دلالات مثل: الغضب، والتعجب، والتهكم، ... إلى غير ذلك من الانفعالات

(١) الحيوان: (٣٢/١) .
(٢) السابق: (٤٨/١) .

النفسية التي تعبر عنها تلك الإشارات الجسمية، ثم ذكر أن هذه الإشارات البيانية ليست على قدر واحد من تحقيق الفهم والإفهام، فالتعبيرات الجسدية أقرب في وصول المعنى المراد من غيرها؛ لحضورها والتصاقها بطرفي الخطاب، **ثم فصل القول في وظيفتها البيانية قائلا:**

> "ولا بدَّ لبيان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ، ....، وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ "[1]

يصرح الجاحظ هنا بأن الدلالة المستفادة من اللفظ لا تكفي وحدها في تحقيق الغرض من الخطاب، بل لا بد من اقترانها بصورة بيانية أخرى أقرب إلى فهم المتلقي، وهي البيان بالإشارة، فالعناصر السياقية اللغوية التي يتواصل بها قد لا تكفي وحدها في بعض المقامات لتبليغ المراد، بل يحتاج المتكلم بها إلى حضور مخاطبه حال عملية التواصل، ورؤيته لتعبيراته وانفعالاته وإشاراته، إذ إن هذه الوسائل البيانية غير اللغوية تعين على تحديد المراد من الخطاب على وجه الدقة، وهذا ما ارتآه -أيضا- ابن جني عندما أكد على ضرورة استحضار الشواهد الحالية المصاحبة للفظ عندما قال: "ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: "فصكت وجهها"[الذاريات: ٢٩] لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها، وليست كل حكاية تروى لنا، ولا كل خبر ينقل إلينا يشفع به شرح الأحوال التابعة له ،المقترنة -كانت- به نعم ولو نقلت إلينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها"[2] فابن جني هنا أكد ما ذكره الجاحظ من ضرورة استحضار الحدث غير الكلامي بجانب الحدث الكلامي في ادراك المعنى فهما يريان أن الإشارات الجسمية، والانفعالات النفسية التي تشكل على الوجه تصور ما في النفس تصويرا دقيقا، وتفعل في نفس المتلقي ما تعجز عنه العبارات اللغوية وحدها.

---

(١) الحيوان: (٥٠/١) .

(٢) الخصائص: (٢٤٦/١) .

وعن أهمية القرائن السياقية غير اللغوية في تحديد الدلالة تحديدا دقيقا **يقول الجاحظ:**

"وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل ودَلالات ... كما استدلُّوا بالضَّحك على السرور وبالبكاء على الألم، وعلى مثل ذلكَ عرفوا معاني الصوتِ وضروبَ صورِ الإشارات وصورِ جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقَبه، والكلبُ اسمَه، وعلى مثل ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدَّ حُضْرُ الدابّة مع رفع الصوت حتّى إذا رأى سائسَه حمحم، وإذا رأى الحمامُ القيِّمَ عليه انحطَّ للقطِ الحبّ قبل أن يُلقِيَ له ما يلقطه"[١].

فالجاحظ في هذا النص عبر عن أنواع البيان بالصور والدلالات والمواثل والعلامات على حد تعبير الغربيين للدال بالعلامة، فيما يعرف في الدرس الحديث بعلم السيمياء (علم العلامات)ثم وقف عند صورة من صور التواصل غير اللغوي له أثر كبير في الدلالة وهي لغة الإشارة، والملامح الأدائية الصوتية المصاحبة للحركات الجسدية، فهذه الدلالات غير اللفظية قد تكفي وحدها في تصوير ما في النفس من شعور وإرادة، وهذا النوع من التواصل هو الطريق الوحيد للتعبير عند بعض هؤلاء الذين لا يقدرون على التواصل اللفظي كما في نص الجاحظ:

"وقد يراك الأخرسُ مِن النّاس، والأخرس أصمُّ فيعرف ما تقول بما يرى مِنْ صُورة حَرَكَتِكَ كما يعرف معانيكَ من إشارتك ويدعُوك ويطلُبُ إليك بصوتٍ وهو لم يسمَعْ صوتَكَ قط، فيقصِدَ إليه، ... والأخرس يرى النَّاس يصفِّقون بأيديهم عند دعاءِ إنسانٍ أو عند الغضب والحَدّ، فيعرف صورة تلك الحركةِ لطول تَرْدادِها على عينيه كما يعرف سائرِ الإشارات وإذا تعجَّبَ ضربَ "[٢]

فهو هنا يذكر أن التعبير بالإشارة والملامح الأدائية التطريزية، والانفعالات

---

(١) الحيوان: (٧١/١) .

(٢) السابق: (٤٠١/٤) .

النفسية، والحركات الجسدية كوسائل تواصل غير لغوية لها أكبر الأثر في عملية الفهم والإفهام بل قد تكون بديلا عن التواصل اللفظي في بعض المقامات، ثم نراه في موضع آخر يوضح الأثر الدلالي لبعض القرائن غير اللغوية على نحو ما ذكر في النص التالي **إذ يقول:**

" تأثير الأصوات وَأَمْرُ الصَّوتِ عجيبٌ وتصرُّفُه في الوجوه عجب، فمن ذلك أنّ منه ما يقتل كصوت الصاعقة، ومنها ما يسرُّ النفوس حتى يُفْرِط عليها السُّرُورُ فتقلَقَ حتى ترقُص، وحَتَّى رُبما رمى الرَّجُل بنفْسه مِن حالق وذلك مثلُ هذه الأغاني المطرِبة، ومن ذلك ما يُكْمِد ومن ذلك ما يزيل العقْل حتى يُغْشَى على صاحبه كنحو هذه الأصواتِ الشجيةِ والقراءَات الملحَّنة، وليس يعتريهم ذلك مِنْ قِبَلِ المعاني لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كَلاَمِهم، وقد بَكَى ماسرجويه من قراءَة أبي الخوخ فقيل له: كيفَ بكيتَ من كتاب الله ولا تصدّقُ به قال: إنما أبكاني الشجا "[1]

فهو في هذا النص يشير إلى طواعية الظواهر التطريزية للأصوات من نبر وتنغيم وما يصاحبها من دلالات إيحائية، فلكل مقال أداء يعبر عنه، وحال يمثله، وصورة تؤديه، تترك أثرا متعدد الأبعاد في السامع، وعليه فإن الجاحظ قد فطن إلى الدور الاجتماعي الذي يؤديه السياق الصوتي -من تأثير ودلالة إيحائية في السلوك النفسي للمتلقي.

ثم يشير الجاحظ إلى نوع من السياق المقامي له أثر في تفسير الشواهد وهو السياق الخطي -

"وضروبٌ من الخُطوطِ بعد ذلك ... وخط آخر وهو خطُّ الحازي والعرَّاف والزَّاجِر ... وخُطوطٌ أخَر تكون مستراحاً للأَسيرِ والمهموم والمفكّر، كما يعتري المفكر من قَرْع السنِّ والغضبانَ من تصفيقِ اليد وتجحيظ العين. وقال تأبَّطَ شَرًّا:

(١) الحيوان: (١٩٢/٤) .

لتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السنَّ مِنْ نَدَمٍ ** إذا تذكَّرتِ يوماً بعضَ أخلاقي

وفي خطِّ الحزينِ في الأرض يقول ذو الرُّمَّة:

عَشِيَّةَ ما لِـي حِيلةٌ غيرَ أنَّني ** بِلَقْطِ الْحَصَى والخطّ في الدارِ مُولَعُ
أخطُّ وأَمحو الخطَّ ثم أُعِيدُه ** بكفِّـيَ والغِرْبانُ في الدارِ وُقَّعُ

وذكر النابغةُ صنيعَ النساءِ وفزَعَهنَّ إلى ذلك إذا سُبِين واغتربن وفكّرن فقال:

ويَخْطُطْنَ بالعِيدانِ في كلِّ منزلٍ ** ويَخْبَأْنَ رُمَّانَ الثُّدِي النواهدِ

وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلّلِ كما يفزع إليه المهمومُ وهو قولُ القاسم ابن أمية بن أبي الصَّلْت:

لا ينقرون الأرضَ عند سُؤالِهم ** لتلمُّسِ العِـلاَّتِ بالعِيدانِ"[1]

فكما أن الحالة النفسية لها ما يعبر عنها من دلالات جسمية محسوسة ومشاهدة كجحوظ العينين، وتصفيق اليدين للغاضب، ثم ما يتبع ذلك من أثر في الدلالة كذلك فإن نوع الخط أيضا يستدل به عن الحالة النفسية لصاحبه كما ذكر الجاحظ، وذلك كخط المهموم والأسير الحزين والمتعلل والمغترب والخجل، وبالتالي يعتبر السياق الخطي - إن صح التعبير- في هذه الحالات الشعورية قرينة من قرائن الأحوال يكون لها أثر دلالي في تفسير الشواهد.

(١) الحيوان: (٦٤/١) .

المطلب الرابع

الشق الاجتماعي (المكون الاجتماعي / المنحى التداولي للغة) عند الجاحظ

ومن جانب أخر فإن الجاحظ انتقل للحديث عن مبدأ مهم جدا من المباديء التي أسست عليها النظرية السياقية، وهو الشق الاجتماعي لعملية التواصل، قال فيه:

> "(البيان ضروري للاجتماع) وهو البيانُ الذي جعلَه الله تعالى سبباً فيما بينَهم، ومعبّراً عن حقائق حاجاتهم، ... ولأنّ أكثرَ الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأَشباح الماثلة والأجسامِ الجامدة والأجرامِ الساكنة التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ ... إلاّ بالعقلِ الثاقب اللطيف ... "[(١)].

فحديث الجاحظ هنا تضمن الإشارة إلى ملمح خاص بعنصرين أساسيين لهما بالغ الأثر في نجاح العملية التبليغية، وهما المرسل والمرسل إليه (قطبا عملية التواصل) حيث ذكر أن عملية الفهم والإفهام مرتبطة بمدى التشابه والتوافق بين طرفي التواصل، ثم زاد الحديث عن هذا الملمح قائلا:

> "ولأنَّ الشّكلَ أفهَمُ عن شكله وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم وضُروبِ السباع، والصبيُّ عن الصبيّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه أنزَع، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيّه - عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً" [الأنعام: ٩] لأَنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس، وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه"[(٢)].

دقيقة جدا عبارة الجاحظ: "**وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه**" إذ

(١) الحيوان: (٤٥/١) .
(٢) السابق: (٤٥/١) .

تشير تلك العبارة إلى وعي الجاحظ بالدور المنوط بالمتكلم، فالهدف من العملية التبليغية هو التأثير في المتلقي وتحقيق قصدية الخطاب في المقام الأول، فيذكر الجاحظ هنا أنه كلما زاد التوافق نوعيا وفكريا وثقافيا واجتماعيا وعقديا بين طرفي عملية التواصل كانت عملية التبليغ أنجح في تحقيق الرسالة المرجوة منها وآكد في نفس المتلقي؛ واستشهد على تنظيره هذا بنموذج حي من الواقع المشاهد، وهو إرسال الرسل لتبليغ الوحي الإلهي الذي قصره الله تعالى على البشر دون الملائكة، فهذان النصان يؤصلان للجانب الاجتماعي (السياق العاطفي) في نظرية السياق.

وأما عن محددات المعنى أو عناصر السياق اللغوية منها وغير اللغوية، وصور التواصل بها فتضمنه حديثه في نصه هذا، إذ قال فيه:

"ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون معانِيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم في أربعة أشياء، وفي خَصْلةٍ خامسة، ... وهذه الخصال هي: اللفظ والخطّ والإشارة والعَقْد، والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالة، وصدقِ الشهادة، ووُضوح البرهان في الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة والساكنة"[(١)]

ثمَّ قسّم هذه العناصر البيانية على صور أدائها حسب ما يقتضيه حال المخاطب من الخطاب، فقال:

" ...، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارةَ للناظر، وأشرَك الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد، ... وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه ...، ولم يجعل للشامّ والذائق نصيبا"[(٢)]

فالجاحظ هنا عدد صور محددات الدلالة على المعنى (عناصر السياق)

(١) الحيوان: (٤٥/١).
(٢) السابق: (٤٦/١) .

اللغوية منها وغير اللغوية، ثم **وقف عند الصور التواصلية المستخدمة مع هذه المحددات الدلالية**، فجعل لكل نوع من أنواع البيان صورة تواصلية مناسبة تعبر عنه وتستخدم معه، فالسامع يناسبه اللفظ، والناظر يناسبه الحركات الإشارية، والناظر واللامس يناسبهما العقد، والخط للحاجات البعيدة كالمكاتبات والرسائل البريدية، والمعلومات المعرفية المبثوثة في المصنفات، وعليه فإنه يمكن القول: بأن لكل مقام أداة تواصلية تناسب التبليغ عنه.

ويقف البحث هنا عند عبارة الجاحظ في النص السابق " **ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيبا**" فهي تحتاج إلى مراجعة، فهو وإن لم يُجعل لهما نصيبا من اللفظ والإشارة والخط والعقد، فإن لهما في الصورة الخامسة من صور البيان وهي النصبة أو الحال المشاهدة حظا؛ إذ يستدل برائحة الدخان على النار، وبتذوق الماء على عذوبته من عدمه.

وعلى أية حال فإن حديث الجاحظ في هذا النص يعتبر إشارة إلى ملمح اجتماعي آخر له علاقة بأطراف عملية التواصل الثلاثة (مرسل/مرسل إليه/رسالة) وهو الحديث عن أداة أو صورة البيان المستخدمة في إرسال الرسالة؛ إذ يجب أن يراعي المرسل حال المرسل إليه، والهدف المنشود من عملية التواصل، وطبيعة الرسالة فلكي يضمن المرسل إيصال الرسالة التي ينشدها من عملية التواصل يجب عليه مراعاة ما يلائم حال المرسل إليه من تلك الأدوات التواصلية، فالبحث يحمد للجاحظ هذا التعمق في الحديث عن العناصر السياقية المحددة للمعنى، فلم يقف عند حد تعدادها فحسب بل تخطاه إلى الصور التي تؤدى بها رابطا ذلك كله بحال المتلقي، وهذا السلوك - من مراعاة حال المخاطب -من أهم المباديء التي أسست عليها النظرية السياقية الغربية، ثم استطرد في الحديث عن هذا الملمح التواصلي (الشق الاجتماعي لنظرية الساق) فقال:

"فجعل اللفظ لأقرَب الحاجاتِ والصوتَ لأنفَسَ من ذلك قليلا، والكتابَ للنازح من الحاجاتِ"[1]

فالجاحظ بعد أن ذكر في النص السابق العناصر السياقية اللغوية وغير

(١) الحيوان: (٤٨/١) .

اللغوية، كذا الحديث عن صور التعبير عنها حسب ما يقتضيه حال المخاطب تطرق في حديثه هنا إلى ذكر صور البيان المناسبة لطبيعة الرسالة التبليغية، فالحاجات التبليغية الحالية (القريبة) يلائمها التواصل اللفظي، والأبعد من ذلك قليلا يناسبها الصوت، أي الصياح، أما النازح من الأغراض التبليغية فيلائمه الخطوط والكتابة، فعلى قدر مراعاة المتكلم لعنصري الزمان والمكان مع طبيعة الرسالة التبليغية وحال المرسل إليه تتحقق الغاية الدلالية المنشودة من عملية التواصل، فإذ لم يراع المتكلم هذه العناصر المقامية أثناء عملية التلبيغ فقدت الهدف المنشود منها، وحالت دون وصول الدلالة للمتلقي، يعبر عن ذلك الجاحظ بقوله:

> "وأَبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلك والمعاوِنِ لك ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمَتاً، ونداءً خالصاً ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة وعُطْلٌ من الدَّلالة"(١)

فعملية الفهم والإفهام تتوقف على اختيار صورة البيان الملائمة لحال طرفي التواصل وطبيعة الرسالة التبليغية من حيث الزمان والمكان والموضوع.

والجاحظ في هذه النصوص أبدع في حديثه عن العناصر السياقية بالتأصيل والتنظير الذي يتسم بالعمق والدقة، فشمل حديثه وصفا مفصلا عن أطراف العملية التواصلية من مراعاة لحال المخاطب، والحديث عن الصورة البيانية المناسبة له، وكذا الإشارة إلى مراعاة ما تقتضيه الرسالة التبليغية، هذا التأصيل الشامل الدقيق ينبيء عن أن الطرح الغربي المتعلق بهذه النظرية لم تأت بجديد، وإنما كان طرحها الذي عليه الآن امتدادا لهذا التأصيل العربي التراثي.

ويستطرد الجاحظ في الحديث عن الشق الثاني للسياق وهو الشق أو المكون الاجتماعي للغة وأثره في توجيه دلالة النص فيقول:

> "على أَنَّ قراءة الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التّلاقي يشتدُّ التصنُّع، ويكثُر التظالُم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الحَمِيَّة،

(١) الحيوان: (٤٧/١) .

وعند المواجَهةِ والمقابلَة يشتدُّ حبُّ الغلَبَة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع والأنفةِ من الخضوع، وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن، ويظهرُ التباين وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وعلى هذه الهيئة امتنعتْ من التعرُّف وعميت عن مواضع الدلالة"[1]

فيشير الجاحظ هنا -من طرف خفي- إلى ملمح تواصلي مهم، وهو الظروف الملابسات والأحداث المصاحبة للخطاب، فالأحداث غير الكلامية المقترنة بالحدث الكلامي أثناء العملية التواصلية لها تأثير لا يستهان به في توجيه الخطاب لمسار يغاير ما ينوي المتكلم تبليغه، مما يؤدي في النهاية إلى تعميم الدلالة، وعليه يفهم -ضمنيا من هذا النص- أن وضع الخطاب أو الحديث في إطار تواصلي، تتفاعل فيه الأطراف المشاركة في عملية التواصل من مرسل ومستقبل ورسالة، وما يحمله كل طرف من أحداث وملابسات وقرائن ومقامية قد ينتج دلالة غير التي قد ينتجها إذا ما جرد من هذه القرائن المقامية.

هذا وبعد عرض هذه النصوص التأصيلية لفكر الجاحظ، والتي تضمنت الحديث عن طرق التواصل اللغوي منها وغير اللغوي، وأنواع السياق من صوتي، وخطي، وعاطفي، واجتماعي ودورها التبليغي في عملية الفهم والإفهام، يعرج البحث في النصوص التالية على تأصيلات جاحظية تتضمن الحديث عن نوع آخر من السياق يتعلق أيضا بالشق الاجتماعي للغة، يشير فيه إلى ربط النص اللغوي بالموقف الذي قيل فيه، فاختيار الألفاظ اللائقة بمقام الحدث الكلامي، وتبليغها إلى المستمع مع اعتبار الظروف النفسية والاجتماعية المحيطة به، وكل الملابسات الخارجية للحدث الكلامي مبدأ تداولي لساني أصل له الجاحظ في النصوص التالية: **حيث قال في ذلك: "ولكلِّ مقام مقال، ولكلِّ صناعة شكل"[2] ثم استطرد موضحا عند حديثه عن (تناسب الألفاظ مع الأغراض):**

"ولكلِّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ، ولكلِّ نوعٍ مِن المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسَّخيفُ للسخيف، والخَفِيفُ للخفيف، والجَزلُ

(١) الحيوان: (٣٥/١) .
(٢) السابق: (٣٦٩/٣) .

لِلجَزل، والإفصاحُ في مَوضع الإفصاح، والكِناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال، وإذا كان مَوْضعُ الحديثِ على أنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهٍ وداخِلٌ في باب المزَاح والطِّيب فاستعْمَلتَ فيه الإعراب انقَلَبَ عن جِهَتِه، وإنْ كان في لفظه سُخْف وأبْدَلْتَ السَّخافَةَ بالجَزالة صارَ الحديثُ الذي وَضع على أنْ يُسرَّ النُّفوسَ يُكْرُبها ويَأْخُذُ بِأَكظامها[١].

فالجاحظ في هذين النصين يؤكد تاكيدا واضحا على ضرورة ربط المقالات بمواقفها الاجتماعية من أجل تحديد الدلالة وفحوى النصوص اللغوية تحديدا دقيقا، فالجاحظ هنا لم يقتصر في تحديد الدلالة على "النظر في بنية النص اللغوية، كما لو كان شكلا منعزلا عن العوامل الخارجية التي تلفه وتحيط به، وإنما أخذ مادته اللغوية على أنها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطن إلى أن الكلام له وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي، وأن هذه الوظيفة وذلك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال أو المقام، وما فيه من شخوص وأحداث، فكان بكل ذلك قد أسس لفكر لغوي متأخر عنه بآلاف السنين"[٢].

وعليه يمكن اعتبار مقولة: (لكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل) تأصيل لغوي تراثي للمصطلح اللساني الحديث (المكون الاجتماعي أو الشق الاجتماعي للغة) حيث إن مصير انتقاء المفردة اللغوية في تركيب ما يتعلق حتما بالمعطيات الظرفية، والملابسات الخارجية والقرائن المقامية، وشواهد الأحوال المصاحبة للحدث الكلامي؛ لهذا دعا الجاحظ إلى وجوب تحري الموضوع المتحدث عنه باختيار ما يلائمه من الألفاظ وفق ما يقتضيه المقام.

وفي النصوص التالية يعرض الجاحظ لبعض المقامات التي يجب على المتكلم/المرسل أن يراعيها عند الحديث، حتى يؤثر في عقل المتلقي، ويقع في نفسه الموقع المنشود، وعبارته:

---

(١) الحيوان: (٣/٣٩) ١.

(٢) ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب: ١٠٦

" والإيجاز ليس يُعنَى به قلَّةُ عددِ الحروفِ ... وكذلك الإطالة، وإنَّمَا ينبغي له أن يحذف بقدرِ ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا يردِّد وهو يكتفي في الإفهام بشِطره فَما فضَل عن المقدار فهو الخطل[1].

وقال عن (مواضع الإسهاب)

"ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلحٍ بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السِّماطين في مديح الملوك أطالوا وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطَل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عَجْز ... "[2].

وقال في موضع آخر عن مقام (الإطناب والإيجاز):

"وقد بقيتْ أبقاك الله تعالى أبوابٌ توجب الإطالة وتُحوج إلى الإطناب، وليس بإطالةٍ ما لم يُجاوزْ مِقْدارَ الحاجة ووقف عند منتهى البغية"[3]

ففي هذه النصوص تحدث الجاحظ عن مقامات الإيجاز والإطناب والتي ظهر من خلالها توظيفه العملي لدور عنصر سياق الحال في الدلالة فمراعاة المتكلم لمقتضى حال النص من حيث موضوعه، وكذا مقتضى حال المتلقى وموقفه من الحديث يسهل عملية الفهم والإفهام، ويجعل العملية التبليغة تجد صداها لدى المتلقي، فالوحدات اللغوية لبناء تركيب المدح غيرها في تراكيب الذم، أو الهجاء، أو الرثاء، فلكل مقام بناء لغوي خاص به، واستشهد الجاحظ على هذا المبدأ التداولي الذي يهتم بدراسة اللغة في الاستعمال بنموذج تطبيقي من القرآن الكريم وهو:

"مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العربَ والأَعْرَابَ أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم جعلَه

(١) الحيوان: (٩١/١) .
(٢) السابق: (٩٣/١) .
(٣) السابق: (٧/٦) .

مبسوطاً وزاد في الكلام، فأصوبُ العمل اتّباعُ آثار العلماء والاحتذاءُ على مثالِ القدماء والأَخذُ بما عليه الجماعة"[١]

فالجاحظ يوضح هنا كيف اختلف الأسلوب القرآني في كلا السياقين، ففي مقام حوار الله مع المؤمنين تجد البناء اللغوي للنص القرآني متسما بالإيجاز والإشارة بما يتواءم وطبيعة تفكير المؤمنين وتصديقهم بالله، بينما السياق اللغوي في مقام وحوار الله مع بني إسرائيل يكون مبسوطا بما يتناسب مع عقليتهم الجدلية المعاندة للحق، وعليه فإن فكرة لكل مقام مقال، تمثل بدقة الشق الاجتماعي للغة، وتربط في نفس الوقت أطراف عملية التواصل ببعضها؛ إذ تعنى هذه الفكرة بالبناء اللغوي للنص وتعلقه بحال المتلقي، وموضوع الحديث، ومن ثم فإن العناية بالجانب النصي للسياق وحده أثناء العملية التواصلية لا يجدي؛ لأنه خلا من محتواه الاجتماعي التواصلي والذي له أهمية كبيرة في الإحاطة بمقصود الخطاب، ومن ثم فإن معرفة مقصدية الخطاب على وجه الدقة تتطلب الوقوف على جانبين مهمين هما دلالة النص (المقال أو البناء التركيبي) والدلالة الاجتماعية (المقام أو الحال) وهذا ما أكد عليه أيضا ابن قتيبة حين قال: " وهذا ليس بمحمود في كل موضوع ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام"[٢] وعلى دربهما سار السكاكي عندما قال: " لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار جميع ذلك معلوم لكل لبيب وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في

(١) الحيوان: (٩٤/١) .
(٢) أدب الكاتب لابن قتيبه: ١٩

ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال"[١] فثبت بذلك أن مبدأ مرعاة المقام ومطابقة المقال لمقتضيات الأحوال مبدأ لساني أصيل في الفكر العربي التراثي.

هذا وفي معرض الحديث أيضا عن مراعاة المقام، وماتفرضه مقتضيات الأحوال المحيطة بالنص يقول الجاحظ:

> "وإنما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرُها لكثيرها، وقليلها لقليلها وشريفُها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردةُ البائنة بصُورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقلَّ مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهاتُ الملْتبسة"[٢]

يؤكد الجاحظ هنا على فكرة وجوب مطابقة الكلام لمقتضى حال المتلقي، وموضوع الحديث، والقرائن المقامية المحيطة بالنص، فالبناء اللغوي لا ينفصل بحال من الأحوال عن السياق الذي يرد فيه، وهذا التأصيل ذكره أيضا في مصنفه البيان والتبيين وأكد عليه في غير موضع، فقال:

> «ويجب على المتكلم أن يوازن بين المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما»[٣]

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب:

> "ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه"[٤]

---

(١) مفتاح العلوم: ١٦٨

(٢) الحيوان: (٨/٦) .

(٣) البيان والتبيين: (١٣٨/١) .

(٤) السابق ذاته: (٦٤/١) .

وقال أيضا عن ضرورة مراعاة المتكلم لحال المخاطبين:

" وإن كان المتكلمُ رفيق اللِّسان حسن البيان إلاّ أنّي لا أشُكُّ على حالٍ أنَّ النفوسَ إذْ كانتْ إلى الطَّرائف أحنَّ وبالنَّوادر أشغف وإلى قصار الأحاديث أمْيل وبها أصبَّ أنَّها خليقةٌ لاستثقال الكثير وإن استحقَّت تلك المعاني الكثيرة وإنْ كان ذلك الطَّويلُ أنفعَ وذلك الكثيرُ أردّ"(١)

فالجاحظ هنا يشير إلى أن الكاتب أو المتكلم إذا امتلك أدوات الفصاحة الأسلوبية، لا بد أن يراعي مع ذلك احتياج المخاطبين وميولهم وما تصبوا إليه نفوسهم؛ فالاعتناء بالجانب النصي وحده بعيدا عن مقامه لا يفي بالغرض التبليغي من الحديث.

ومن ثم فإن هذه النصوص الجاحظية تتضمن إشارات واضحة ودقيقة لتوظيف سياق الحال، أو المقام توظيفا تطبيقيا في أثناء العملية التواصلية، والجاحظ يعني بالمقام هنا: جملة الظروف والملابسات المحيطة بالنص اللغوي، من مراعاة لمقتضى أحوال المخاطبين من ظروف فكرية واجتماعية وعقدية، ومدى مناسبتهم أو استجابتهم لموضوع الخطاب، وعليه فإن مقتضى الحال يعني: أن يصاغ البناء اللغوي للنص على صفة مخصوصة تتناسب وحال المخاطب وموضوع الخطاب، فهاهو ذا الجاحظ يقول في البيان والتبيين:

"و أن لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة ... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"(٢)

وعضد هذا المبدأ أيضا الإمام الشاطبي حين **قال" أَنَّ عِلْمَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ إِعْجَازُ نَظْمِ الْقُرْآنِ فَضْلاً عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَاصِدِ كَلَامِ الْعَرَبِ؛ إِنَّمَا مَدَارُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ: حَالِ الْخِطَابِ مِنْ جِهَةِ نَفْسِ الْخِطَابِ، أَوِ**

(١) الحيوان: (٩/٦) .

(٢) البيان والتبيين: (٩٣/١) .

المخاطِب، أَوِ المخاطَب، أَوِ الْجَمِيعِ"[1] وعليه فإن اللغة لا تنفك عن ملابسات استعمالها "فبحكم ترابط المقال والمقام ترابطا جدليا تصبح خصائص الكلام غير منفصلة عن السياق الذي يحتويه، معنى ذلك أن الحكم للكلام أو عليه لا يتعلق بشيء في ذاته، وإنما يتجاوزه إلى المطابقة المذكورة التي تحصل برعاية الاعتبارات الزائدة على أصل المراد، فالعلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر، فكما أن المقال دليل على المقام، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال، وتظل العلاقة الجدلية قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية "[2] وتجدر الإشارة إلى أن حديث الجاحظ هنا عن ضرورة مناسبة اللغة للمقام الذي تجري فيه العملية التبليغية يتفق وحديث المحدثين عن سياق الموقف.

ومن جميع ما سبق وضح أن النصوص التراثية السابقة تضمنت إشارات عن أقطاب العملية التواصلية من متكلم ومخاطب وخطاب والعلاقات المتشابكة بينهم، فالجاحظ من خلال فكره هذا قد اهتدى في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية إلى ما يحف بالحدث الكلامي من ملابسات وأحداث، وكل ما تقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط يكون لها أكبر الأثر في اختيار المفردات اللغوية للنص اللغوي.

ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الجاحظ أبدع بتأصيلاته التي تضمنتها النصوص التراثية السابقة في دراسة البعدين اللغوي والاجتماعي للغة حين ربط المقام بالمقال، وهذا الربط بين مكونات العناصر اللغوية وغير اللغوية في تحديد دلالة التركيب اللغوي، من خلال المقام الاجتماعي الذي يدور فيه الكلام ويتكون من خلاله التركيب اللغوي يقف المرسل على مجمل الملابسات والدواعي التي رافقت عملية التعبير وأسهمت في توجيهه واختيار الصيغة الملائمة له بما يتناسب وحال المرسل إليه نفسيا وثقافيا وعقديا واجتماعيا.

(١) الموافقات: (٤/١٤٦) .

(٢) أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى د/رشيد بلحبيب:
https: //www.startimes.com/?t=31348577

المطلب الخامس
الجانب التطبيقي لتداولية الجاحظ ودراسته للغة في بيئتها الاجتماعية

هذا وإن من أدل الشواهد التطبيقية التي تثبت أن نظم الألفاظ يتأثر بالمقامات الاجتماعية التي تحيط بها ما ذكره الجاحظ من أمثلة[١] حظر استعمالها لغويا، واستعيض عنها بأخرى على سبيل الكناية، وأخرى كره استعمالها، أو تسمح بعض الأئمة في ذكرها؛ وذلك لأسباب مقامية ترجع لعرف المجتمع وثقافته وعقيدته.

وكذا من الشواهد التوظيفية التي ذكرها الجاحظ يؤكد فيها ارتباط البناء التركيبي للنص بما يحيط به من قرائن مقامية وشواهد حالية ما جاء به عند حديثه عن: (افتراق المعاني واختلاف العلل) حيث قال:

> "ولمكانِ افتراق المعاني واختلافِ العلل قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لبعضهم: "اعقِلْهَا وتَوَكَّلْ" وقال لبلال: "أَنفِقْ بلالَ ولا تخشَ مِنْ ذي العَرْش إقْلالاً". فافهموا هذا التدبيرَ وتعلَّموا هذه الحكم واعرفوا مداخلَها ومخارجَها ومفرَّقَها ومجموعَها، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُرَدِّد في كتابه ذِكرَ الاعتبارِ والحثَّ عَلَى التفكير والترغيبَ في النظر وفي التثبُّت والتعرُّف والتوقُّف إلاّ وهو يريد أن تكونوا علماءَ من تلك الجهة حكماءَ من هذه التعبئة"[٢]

حيث يدل هذان الاستشهادان الحديثيان على الدور الذي تلعبه عناصر سياق الحال (من مراعاة حال المخاطبين وملابسات الموقف) في توجيه المعنى، واستنباط العلل، وعليه فإن مجموع الاعتبارات المقامية من ظروف زمانية ومكانية وملابسات وقرائن ومقتضيات أحوال مصاحبة للحدث اللغوي، تؤثر فيه إلى درجة أن دلالة النص لا تنجلي إلا في ظل هذا المكون الاجتماعي (سياق المقاصد).

---

(١) ينظر حديثه عن هذا في الحيوان عن: (ما يكره من الكلام ٣٣٥/١) وحديثه عن: (تسمُّح بعض الأئمة في ذكر ألفاظ ٤٠/٣) وحديثه عن: (ما تستنكره العامة من القول ٣٦٥/٣) .

(٢) الحيوان: (١١٥/٢) .

المطلب السادس

الجانب اللغوي (النصي) للسياق عند الجاحظ

وبعد أن أشبع الجاحظ الحديث عن مفهوم السياق وعناصره وصور التعبير عنه ودور كل عنصر في توجيه الخطاب، وما يقتضي ذلك من مراعاة حال المخاطب، وطبيعة الحديث من ملابسات ومقامات بما يتناسب والغرض من العملية التبليغية انتقل إلى الحديث عن عنصر آخر من عناصر السياق وهو العنصر اللغوي، أو الوحدات اللغوية التي يتركب منها النص اللغوي قال فيه ما نصه:

"(ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب) وليس الكتّابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حَتَّى لا يحتاج السامع لما فيه من الرويَّة، ويحتاجُ مِنَ اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلَةِ والحَشْو، ويحطُّه من غريب الأعراب، ووَحْشِيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدّاً، وينقّحَه، ويصفّيه، ويروّقه حتى لا ينطِقَ إلاّ بِلُبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَه، وأسقطَ زوائِده، حتّى عاد خالصاً لا شَوْب فيه فإنَّه إن فعل ذلك لم يُفْهَمْ عنه، إلا بأن يجدّد لهم إفهاماً مِرَاراً وتَكراراً، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها"[1]

فالجاحظ يأخذ على يد الكاتب أن ينتقي ألفاظه، ويتخيرها بعناية، فيبعد بها عن الوحشي والغريب، ويهذبه مما لا يحتاج إليه ويعيق فهمه، وأن يقربها إلى ما تعارف عليه المتلقون في محاوراتهم ومعهود خطابهم، فهو بذلك راعى العنصر اللغوي للنص وربطه كذلك بناتج عملية التبليغ، فكلما راعى انتقاء البنية التركيبة للنص بما يتلائم مع حال المتلقي كلما أتت عملية الفهم والإفهام ثمرتها المرجوة منها في نفس المتلقي، فالبلاغة هي "تخير اللفظ في حسن إفهام"[2] وأكد على

(١) الحيوان: (٩٠/١) .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة: (١٨٧/٢) .

مسألة انتقاء البنية اللغوية للنص في موضع آخر، حيث قال عن: **"اختيار الألفاظ وصوغ الكلام:**

> "وأنا أقولُ في هذا قَوْلاً وأرجو أن يكون مرضياً، ولم أقلْ أرجو لأني أعلمُ فيه خللاً، ولكنّي أخذتُ بآدابِ وجوهِ أهلِ دعوتي وملَّتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي، وهم العرب ... فإنَّ رأيي في هذا الضّربِ من هذا اللفظ أنْ أكونَ ما دمتُ في المعاني التي هي عبارتها، والعادَة فيها أن ألفِظ بالشّيء العتيد الموجود، وأدَعَ التكلّفَ لِما عسى ألاَّ يسلس ولا يسهلَ إلاَّ بعد الرِّياضة الطويلة"[(١)]

فالجاحظ من خلاله هذا النص يبين التزامه في كتبه بما حث عليه الكاتب في الفقرة السابقة من العناية بالجانب السياقي للنص، من حيث البناء الداخلي للتركيب اللغوي وانتقاء الألفاظ الموائمة لدلالتها واختيار أبسطها فهما، ووصولا لذهن القاريء.

وبعد حديثه عن الاهتمام بالجانب اللغوي للنص تطرق لنقطة مهمة جدا، لا يمكن إغفالها حتى يستطيع المتلقي الوقوف على ما يرمي إليه الخطاب من دلالة، حيث قال:

> " ... ألا تَرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يدور وهو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولو سمعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه؛ لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَف جهةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام"[(٢)].

يشير الجاحظ هنا إلى أن الاكتفاء بالمعنى الحرفي الظاهري للنص مجردا عن الاعتبارات المقامية يعتبر سببا في قصور فهم فحوى النص، فاللفظ قد تتعدد

(١) الحيوان: (٣٦٨/٣) .
(٢) السابق: (٩٠/١) .

دلالته بتعدد استعمالاته، فدلالة مصطلحات المناطقة غير دلالة مصطلحات الأدباء والخطباء **"ولكلِّ قَوْمٍ ألفاظٌ حظِيتْ عِنْدَهم"**[1] فالمرسل يجب عليه مراعاة حال المتلقي الثقافي والاجتماعي أثناء العملية التواصلية، حتى يقع ما يرسله في نفس المتلقي الموقع المرجو، ثم قال:

> "وأرى أنْ ألفِظ بألفاظِ المتكلمين ما دُمتُ خائضاً في صناعة الكلام مع خواصّ أهل الكلام، فإن ذلك أفهمُ لهمْ عني وأخفُّ لمؤنتهمْ عليّ ... ولكل صناعةٍ ألفاظٌ قد حَصلت لأهلها بَعدَ امتحان سواها فلم تَلزَق بصِناعتهم إلاَّ بَعدَ أن كانَتْ مُشاكَلاً بينها وبين تلك الصناعة"[2]

فصياغة الألفاظ بما يتناسب والمستوى الثقافي والاجتماعي والفكري للمتلقي له أكبر الأثر في نجاح عملية الفهم والإفهام،

> فـ"قبيحٌ بالمتكلم أنْ يفتقر إلى ألفاظِ المتكلّمين في خُطبةٍ أو رسالة، أو في مخاطبةِ العوام والتجار أو في مخاطبةِ أهله وعبْدِه وأمته، أو في حديثه إذا تحدثَ، أو خبره إذا أخبر. وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلِبَ ألفاظ الأعرابِ وألفاظ العوامّ وهو في صناعة الكلام داخل"[3].

فالجاحظ أصل في هذه النصوص مبدءا تداوليا مهم جدا في النظرية السياقية، وهو أن المعنى لا يتضح إلا من خلال نظمه ز استعماله وفقا لمقتضى حال الملتقي/ المرسل إليه. وعليه يمكن القول بأن الجاحظ كان مدركا تمام الإدراك أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأنها شديدة الارتباط بثقافة وفكر ناطقيها وحياتهم الاجتماعية، فاللغة لا تنفك عن السياق الاجتماعي إضافة إلى بنائها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه النصوص تبين مدى عناية الجاحظ بعنصري

(١) الحيوان: (٣٦٦/٣) .
(٢) السابق ذاته.
(٣) السابق: (٣٦٩/٣) .

السياق العاطفي؛ وما يمثله من حال المتكلم والمخاطب وموضوع الخطاب، فلكي يؤتي الحديث ثمرته المرجوة منه في نفس المتلقي ومشاعره يجب عليه نظم البنى التركيبيه لنصه وفق مقتضى حال المتلقي.

فالجاحظ من خلال هذه النصوص ظهر أنه كان على وعي تام بـ"ما يكون من تغير صفات الخطاب وعناصره وفقا لمنزلة المخاطب والاحوال التي تعتريه، مما يدخل في نطاق السياق العاطفي الذي عده علماء اللغة الاجتماعيون المحدثون مطلبا مهما لدراسة اللغة"[(١)].

(١) الاتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة: ١٩٣د/حليمة أحمد عمايرة، دار وائل للنشر والتوزيع، ط: (١) ، ٢٠٠٦م.

المطلب السابع

التركيب (اختلاف مساقات الورود) وأثره على دلالة الألفاظ

واستطرادا لدور العناصر السياقية في الدلالة على المعنى يستكمل البحث عرض النصوص التراثية للجاحظ والتي أشارت إلى أثر هذه العناصر السياقية ودورها في تحديد الدلالة وتوجيه معنى النص، إذ ورد في ذلك:

- النص الأول: ما قال الجاحظ عن (ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم):

"فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهِل تأْويل الكتَابِ والسُّنَّة والشاهد والمثلِ، فإذا نظَر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أَهل هذا الشأن هلك وأَهلك "[1].

فعلى قدر علم اللغوي والمفسر للنصوص العربية بالقرائن السياقية المقالية منها والمقامية ترتفع نسبة الشفافية الدلالية للنص، وعلى قدر جهله بهذه الأمور تنخفض تلك النسبة من الشفافية، وهذه القرائن السياقية التي يجب أن يلم بها عالم اللغة المفسر للنص اللغوي - كما فهم من نص الجاحظ السابق - تتمثل فيما يلي:

- الطبيعة الخاصة بصياغة الأمثال وبنائها، وما تتطلبه من الوقوف على الأصل والمورد.
- ظاهرة الاشتقاق والتصريف، وما تنتظمه من قوانين دلالية وصرفية.
- الأبنية والأوزان القياسية والسماعية، وما يتعلق بهما من تقعيدات لغوية.
- معهود خطاب العرب، والوقوف على مقتضيات أحوالهم، الرجوع إلى مجريات أساليبهم في المحاورات.
- الاشتراك الدلالي لبعض الألفاظ؛ نظرا لتعدد مساقات ورودها.

---

(١) الحيوان: (١٥٤/١) .

فالجاحظ في هذا النص أخذ على يد اللغوي بضرورة الإلمام بكل هذه القرائن المتعلقة بالنص؛ حتي لا يخطيء في الفهم والتفسير، وقريب من هذا حديثه عن الشروط التي يجب أن تتوفر في المترجم للنص القرآني، حيث قال:

- **النص الثاني: قال الجاحظ:**

"هذا قولُنا في كتب الهندسة والتنجيم ... فكيف لو كانت هذه الكتب كتبَ دينٍ وإخبار عن الله عَزَّوَجَلَّ ....، ويتكلَّمَ في وجِوه الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ويكونَ ذلك متضمّناً بما يجوز على الله تعالى ممَّا لا يجوز، وبما يجوزُ على الناس مما لا يجوز، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ والمقابلاتِ التي تَلقَى الأخبارَ العامّيةَ المخرَج فيجعلَها خاصيَّة، وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، وحتَّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صِدقاً أو كذبا، وما لا يجوز أن يسمَّى بصدقٍ ولا كذب وحتَّى يعرفَ اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المُحالِ من الصحيح، ... وحتَّى يعرف المثلَ والبديع والوحي والكناية، وفصْل ما بين الخطَلِ والهَذْر والمقصورِ والمبسوط والاختصار وحتَّى يعرف أبنيةَ الكلام، وعاداتِ القوم وأسبابَ تفاهمِهم، ... ومتى لم يعرفْ ذلك المترجم أخطأَ في تأويل كلامِ الدين"[(١)].

فحديث الجاحظ هنا قريب من حديثه في النص السابق الذي تكلم فيه عما يجب أن ينتبه إليه اللغوي عند تفسير للنصوص والشواهد العربية من ضوابط وقواعد نصية ومقامية؛ لأهميتهما البالغة في فهم النص على النحو المراد.

أما في هذا النص المبدع للجاحظ فأشار فيه إلى خصوصية النص القرآني، وما يعتري نصوصه المعجزة من تخصيص وتعميم، وإطلاق وتقييد، وإحكام وتشابه،

(١) الحيوان: (١/ ٧٧، ٨٧) .

وإظهار وتأويل، وإجمال وتفصيل، وإنشاء وخبر، وحقيقة ومجاز، ... إلى غير ذلك من السمات الأسلوبية البليغة التي تعتري الالفاظ عند تركيبها في السياقات المختلفة، والتي تتطلب من المترجم أن يكون على دراية بها عند نقل النص القرآني إلى لغة أخرى دون الإخلال بالمعنى المراد من النص، كما نبه على ضرورة إلمام المترجم بأبنية الكلام من أوزان وقواعد تصريفية واشتقاقية (سياق لغوي) وكذا الوقوف على عادات القوم وأسباب تفاهمهم للوقوف على قرائن الأحوال والمقتضيات المقامية (سياق غير لغوي) المحيطة بالنص والتي تتحكم بشكل كبير في تحديد المراد من الخطاب، وهذه السمات الأسلوبية التي تميز بها النص القرآني، وتطرق لها الجاحظ في رائعته السابقة سردها الشاطبي من بعده، ونص عبارته: "وَأَنَّ الله خَاطَبَ الْعَرَبَ بِكِتَابِهِ بِلِسَانِهَا عَلَى مَا تَعْرِفُ مِنْ مَعَانِيهَا، ثُمَّ ذَكَرَ مِمَّا يُعْرَفُ مِنْ مَعَانِيهَا اتِّسَاعَ لِسَانِهَا وَأَنْ تَخَاطَبَ بِالْعَامِّ مُرَادًا بِهِ ظَاهِرُهُ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ الْعَامُّ وَيَدْخُلُهُ الْخُصُوصُ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ بِبَعْضِ مَا يُدْخِلُهُ فِي الْكَلَامِ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ الْخَاصُّ، وَيُعْرَفُ بِالسِّيَاقِ، وَبِالْكَلَامِ يُنْبِئُ أَوَّلُهُ عَنْ آخِرِهِ، وَآخِرُهُ عَنْ أَوَّلِهِ، وَأَنْ تَتَكَلَّمَ بِالشَّيْءِ تُعَرِّفُهُ بِالْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ كَمَا تُعَرِّفُ بِالْإِشَارَةِ وَتُسَمِّي الشَّيْءَ الْوَاحِدَ بِالْأَسْمَاءِ الْكَثِيرَةِ، وَالْمَعَانِي الْكَثِيرَةَ بِالِاسْمِ الْوَاحِدِ "[1].

والبحث يقف عند نقطة مهمة جدا أثارها الجاحظ في هذين النصين، ونبه عليها الشاطبي من بعده، وهي تأكيده على ضرورة الاعتماد أو التعويل على معهود خطاب العرب كمرجعية عند تفسير النص، حيث نبه على ضرورة الالتزام بهذا المعهود العرفي (الاجتماعي) العربي، حيث لا يستقيم فهم النص دون الإحاطة به، ولا ينضبط تفسير النص دون أن يجري على ما لا تعرفه العرب في محاوراتها، ومجاري كلامها، وفي ذلك يحضرني مقولة عمر بن الخطاب الشهيرة: "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم" وأستأنس هنا بقول الشاطبي في هذا المقام: " لَا بُدَّ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ مِنِ اتِّبَاعِ مَعْهُودِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي لِسَانِهِمْ عُرْفٌ مُسْتَمِرٌّ، فَلَا يَصِحُّ الْعُدُولُ عَنْهُ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عُرْفٌ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْرَى فِي فَهْمِهَا عَلَى مَا لَا تَعْرِفُهُ هَذَا جارٍ فِي الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ"، وقال في موضع

(١) الموافقات: (١١٧/٤) .

آخر مؤكدا هذه القناعة التي أثارها الجاحظ قبله: " فَإِذَا كُلُّ مَعْنًى مُسْتَنْبَطٍ مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرِ جَارٍ عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ؛ فَلَيْسَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ فِي شَيْءٍ، لَا مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنْهُ، وَلَا مِمَا يُسْتَفَادُ بِهِ، وَمَنِ ادَّعَى فِيهِ، ذَلِكَ؛ فَهُوَ فِي دَعْوَاهُ مُبْطِلٌ "[١]

وعليه فإن تفسير النص القرآني وترجمته تتطلب درجة من الإجادة والمعرفة بسمات اللغة ودقائقها وخصائصها، وحياة العرب وعاداتهم، وأثر تفكيرهم، واعتقاداتهم، وسياستهم وثقافتهم في تعبيراتهم اللغوية، ذلك أن القرآن الكريم نزل بلغتهم، هذه المرجعية الهامة في التفسير تفتقدها النظرية الغربية المجردة من أي مرجعية تضبط عملية التأويل، وتحفظه من الانزلاق والشطط.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حديث الجاحظ عن استقراء معهود الكلمة في السياقات اللغوية والعرفية، ومعرفة أساليب الخطاب، وأوجه المخاطبة التي يحتملها النص القرآني، ما هي إلا تأصيل لفكرة المكون الاجتماعي للغة، وسياق الموقف كما هو مصطلح عليه في الدرس اللغوي الحديث.

هذا ومن التأصيلات الجاحظية التي يظهر من خلالها أثر العناصر السياقية بشقيها في كشف المعنى المراد، قوله:

> "وللعربِ إقدام على الكلام ثقةً بفهمِ أصحابهم عنهم، وهذه أيضاً فضيلةٌ أخرى"[٢]

وذلك بفضل القرائن السياقية، وشواهد الأحوال الكاشفة لمقصود المخاطب، وقوله- أيضا- في موضع آخر مشيرا إلى إعمال العقل من خلال النظر في مقتضيات الأحوال المصاحبة للحدث الكلامي، ودور تلك القرائن السياقية في تحديد المعنى المجازي، وهذا التأصيل يعبر عن السياق الثقافي في الطرح الحديث لنظرية السياق: **قال الجاحظ مؤكدا هذا الأساس:**

> " ومَنْ حمل اللغة علي هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً، وهذا الباب هو مفخرُ العربِ في لغتهم وبه وبأشباهه

(١) الموافقات: (٤/٢٢٥) .
(٢) الحيوان: (٥/٣٣٦) .

اتسعت"[1].

ومن الشواهد التطبيقية التي يظهر من خلال تفسيرها توظيف الجاحظ العملي للاعتماد على العناصر السياقية في الاستدلال، تعقيبه على من فسر قول الله تعالى: "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ" [النساء: ١٩] بالخصاء، ونصه: -

" ... قال: إنَّما يعني الخِصاء لم يقبل ذلك منه لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شيء، وإذا كان اللفظُ عامّاً لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شيءٍ بعينه إلاَّ أن يكون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال ذلك مع تلاوةِ الآية، أو يكونَ جبريلُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ قال ذلك للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي ولا يخُص ولا يعمُّ بالقصد، وإنَّما الدلالةُ في بِنيةِ الكلام نفسِه "[2].

فالجاحظ هنا يصرح بأن دلالة اللفظ وحدها قد لا تكفي في تخصيص الحكم، وإنما لا بد من شواهد، وقرائن أحوال، وأسباب حالية ومقامية تعين على هذا التخصيص.

(١) الحيوان: (٤٢٦/٥) .
(٢) السابق: (١٨٠/١) .

المطلب الثامن
السياق وتفسير المفردة القرآنية عند الجاحظ

لاحظ البحث أن الجاحظ كثيرا ما كان يجمع في تفسيره للمفردة القرآنية بين القرائن اللغوية والمقامية في عملية الاستنباط الدلالي، ولا يقف عند الجانب اللغوي فقط، بل يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يتعلق بحال المخاطب والمتلقي وموضوع الكلام، ومعهود خطاب العرب في هذا الموضع، ويظهر هذا المنهج في النصين التاليين: الأول عند تفسيره لآية النور " **وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ**" [النور: ٤٥] حيث رد على من قال بأن هناك ما لديه أكثر من أربعة قوائم كالسرطان والعناكب، وبالتالي لا تشملهم الآية الكريمة:

> "قلنا: قد أخطأتم في جميع هذا التَّأويل وَحَدِّه، فما الدَّليلُ على أنَّهُ وضع كلامَهُ في استقصاءِ أصناف القوائم، وبأيِّ حُجة جزَمْتم على ذلك. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ" [البقرة: ٢٤] وتَرَكَ ذِكْرَ الشَّيَاطِينِ وَالنَّارُ لهُمْ آكَلُ وعذابُهم بها أشدُّ، فَتَرَكَ ذِكْرَهم من غير نسيان، وعلى أنَّ ذلك معلومٌ عند المخاطب، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: "خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثم جَعَلَكُمْ أَزْوَاجا" [فاطر: ١١] أخرج من هذا العموم عيسى ابنَ مريم وقد قَصَدَ في مخرَجِ هذا الكلام إلى جَميع ولدِ آدم، وقال: "هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً" [الإنسان: ١] أدخَلَ فيها آدمَ وحوَّاءَ ثمَّ قال على صلة الكلام: "إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيه" أخرج منها آدمَ، وحَسنُ ذلك إذ كان الكلامُ لم يُوضَع على جميع ما تعرفه النُّفوسُ من جهةِ استقصاءِ اللَّفظ"(١).

والنص الثاني ما قاله عند تفسيره لدلالة (أصبح) في قوله تعالى: **"فَأَصْبَحَ مِنَ**

(١) الحيوان: (٢٧٢/٤) .

النّادمِينَ " [المائدة: ٣١]:

> فلم يكنْ به على جهة الإخبار أنّه كانَ قَتَلَهُ ليلاً، وإنما هو كقوله: "وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئذ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحرِّفاً لِقتال أوْ مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقدْ باء بِغضبٍ مِنَ اللّهِ" ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللَّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ من عادات الناس، كان من فرَّ من الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيد، وإنما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ من ساعاتِ أعمال الناس وذلك هو النّهارُ دون اللّيل ... ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس ... "[(١)].

وهكذا يلاحظ أن تفسيره للمفردة القرآنية لم يتوقف عند المعنى المعجمي الظاهر من النص القرآني، وإنما تخطاه إلى السياق العرفي أو المقامي، وهو العنصر الاجتماعي في مقابل العنصر اللغوي الذي هو سياق اللفظ أو المقال، وكلاهما يتضافران لتحديد الدلالة المرادة من النص، فالمعنى المنضبط هو الناتج عن معطيات كل من النظام الداخلي للبناء التركيبي للواحدات اللغوية المكونة للنص ومعطيات السياق الاجتماعي المصاحبة للحدث الكلامي في سياق استعماله.

تعقيب:

وبعد عرض التأصيلات التراثية السابقة للأسس والمفاهيم والعناصر التي بنيت عليها النظرية السياقية تنظيرا وتطبيقيا عند الجاحظ في الحيوان تبين الآتي:

- **الجاحظ أشبع الاعتماد على السياق بعناصره تأصيلا وتطبيقا، مع أنه** لم يتعرض لذكر كلمة (سياق) وإنما عبر عنها بألفاظ تتفق في دلالتها مع هذا المصطلح الحديث، كذا لم يضع حدا اصطلاحيا له، مثله في ذلك مثل باقي اللغويين القدامى، وإن كانوا من أسبق الطوائف العلمية التي اهتمت بالدلالة السياقية ووظفتها توظيفا غاية في الدقة والتفصيل في معالجة النصوص وتفسيرها على النحو السابق، والناظر في هذه التأصيلات التراثية يجد كيف فطن الجاحظ لعناصر السياق اللفظية والمقامية بجميع صورها، وأدوات التعبير

(١) الحيوان: (٤١٣/٣) .

عنها، والمقامات التي تقتضيها في المواقف والأغراض التبليغية المختلفة، وذلك بما تضمنه حديثه فيها من ضرورة الاعتناء بالجانب اللفظي للنص، وضرورة الإلمام بالموقف الكلامي، وما يقتضيه من مراعاة أحوال المتكلمين والمخاطبين، وطبيعة الحديث، لما لذلك من تأثير بالغ في نجاح العملية التواصلية، **وعليه فإنه يمكن القول بأن الجاحظ تبلور لديه مفهوم السياق وما اشتمل عليه من عناصر بكل ما يقتضية من مصطلحات حديثة (مكون اجتماعي، إطار تواصلي تداولي، سياق لغوي، سياق غير لغوي).**

- السياق الاجتماعي متأصل في حديث الجاحظ في أكثر من نص، كحديثه عن مراعاة معهود العرب في كلامها، وتأكيده على التعويل عليه لضبط عملية الفهم والتأويل، **هذه المرجعية الهامة في التفسير تفتقدها النظرية الغربية المجردة من أي مرجعية تضبط عملية التأويل، وتحفظه من الانزلاق والشطط.**

- الشق (المكون) الاجتماعي للغة تمثل أيضا في حديث الجاحظ عن المقام والحال، الذي يشمل مجموع الاعتبارات والظروف والملابسات وقرائن ومقتضيات الأحوال المصاحبة للحدث اللغوي، والتي تؤثر فيه إلى درجة أن دلالة النص لا تنجلي بصورة منضبطة إلا في وجود هذا المكون الاجتماعي.

- أيضا تحقق المكون الاجتماعي للغة (وهو العنصر غير اللغوي للسياق) عند الجاحظ من خلال حديثه عن تلك الألفاظ المكروهة الاستعمال، والألفاظ الخاصة بكل طائفة من الناس.

- السياق المقاصدي، أو سياق التنزيل وهي قرائن مقامية يمثلها عند الجاحظ حديثه عن افتراق المعاني لاختلاف العلل.

- سياق الموقف يمثله عند الجاحظ حديثه عن ربط النص اللغوي بالموقف الذي قيل فيه.

- السياق العاطفي يمثله عند الجاحظ حديثه عن تغير صفات الخطاب وعناصره اللغوية وفقا لمنزلة المخاطب والأحوال التي تعتريه.

- السياق الصوتي يمثله حديث الجاحظ عن الظواهر التطريزية والملامح الأدائية المصاحبة للحدث الكلامي.

- السياق الخطي يمثله عن تصنيفه لأنواع الخطوط حسب الحالة النفسية التي تعتري صاحبه.

- السياق الثقافي عند الجاحظ يمثله حديثه عن التمييز بين الحقيقة والمجاز، فالوقوف على ثقافة المتكلم ومعتقداته من القرائن المقامية التي يعول عليها في التمييز بين المعاني الحقيقة والمجازية الواردة في الاستعمال.

- السياق النصي يمثله عند الجاحظ الوقوف على أبنية الكلام، والدراية بقواعدها الاشتقاقية، واختيار الألفاظ البعيدة عن الوحشية والغرابة والتكلف.

- الجاحظ كان على وعي بمعطيات الدرس التداولي الحديث حين تضمن حديثه عن القوة الإنجازية عند تطرقه لتفسير المفردة القرآنية، والاستعمالات المجازية المتعددة لبعض الألفاظ، والتي يقتضيها السياق ومقتضيات الأحوال التي تصاحب البيئة اللغوية للنص، فالجاحظ أراد أن يشير إلى أنه من لم يلحظ سياقية النص القرآني، وما يقتضيه أحيانا من مخالفة مقتضى الظاهر (الوضع المعجمي) إلى وضع استعمالي مجازي (عرفي) اقتضته قرائن الأحوال المقامية، لم يأمن الغلط في التأويل، محرفا الكلم عن موضعه، فحديث الجاحظ في هذه التفسيرات يدل على أن الكلام المنقول (فعل القول) يحمل دلالات مختلفة (الفعل المتضمن) يحددها حال المتكلم (الفعل الناتج).

وهناك مواضع كثيرة نظرية وتطبيقية أصل لها الجاحظ وأعمل فيها فكرة السياق ووظفها توظيفا جيدا، كما اعتمد عليها كمرجع أساس في تفسير النصوص، وذلك على النحو السابق من شرح النصوص السابقة، ويجملها البحث في النقاط التالية:

- عده لأنواع التواصل اللغوي منها وغير اللغوي من (لفظ، وصوت، وقلم، وإشارة) وهي في مجملها تندرج تحت نوعي السياق (النصي، والمقامي).

- حديثه على أن لكل نوع من البيان أداة تقتضيه حسب المقام الذي يقتضه هذا البيان.

- جعله السياق معتمدا على اللفظ والإشارة والصوت والحال، وهو ما عرف بالسياق اللغوي وغير اللغوي عند المحدثين.

- حديثه عن الحال المشاهدة، وقرائن الأحوال (السياق المقامي) ودورها البياني الذي يستدل به على الدلالة، والتي لا تقل بحال عن البيان اللفظي (السياق اللغوي).

- حديثه في أكثر من موضع عن دور الإشارات الجسدية، والحال المشاهدة، والملامح الأدائية، وصوت الحركة، والتعبيرات والانفعالات الجسمية في البيان والتواصل، وتعيين الدلالة المرادة.

- حديثه عن ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال يتجلى بصورة دقيقة عند حديثه عن مواضع الإيجاز والاسهاب.

- تفسيره للمفردات القرآنية عول فيه على الدلالة السياقية المقامية؛ خاصة تلك التفسيرات التي خالف مقتضى الظاهر، حيث ربط الكلام بمقام استعماله ومقتضى حاله.

- حديثه عن أن المفاهمة أبعد ما تكون إذا خلت من الملامح الأدائية، والإشارات الجسدية؛ إذ لا بد بيان اللسان من أمور: منها إشارة باليد أو الرأس، فهو هنا يرى أن الدلالة المستفادة من قرائن الحال لا تنفك عن دلالة النص اللفظية.

- حثه للمترجم لكتاب الله أن يضع نصب عينه ما للنص القرآني من خصوصية أسلوبية ودلالية لا تتوفر لغيره من النصوص، فقد يقع لألفاظه الإجمال، والاشتراك، والتجوز، والتأويل، والتخصيص، والإطلاق، والتشابه والإشكال، والخروج عن الأصل، فنبه على المترجم أن يلم بهذه الخصائص الأسلوبية التي تعرض لدلالات ألفاظ القرآن، وأداته في ذلك حتى يصل للمراد على الوجه الصحيح أداتين:

  - معرفة أبنية الكلام (السياق النصي).
  - الوقوف على عادات القوم وأسباب تفاهمهم. (السياق المقامي).

- حديثه عن الأدوات التي لا بد من مراعاتها وتوافرها عند المتكلم، والمخاطب؛ حتى يصل للمعنى المراد، ومنها: - (جهة الأمر) ويقصد به قرائن الأحوال (سياق الحال).

- (تعود اللفظ) ويقصد به الوقوف على دلالاته في السياقات المختلفة، وجهة تعدد دلالته من وضع واستعمال وحمل.

- عند حديثه عن (ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم) أخذ على يديهما بأن يأخذا في عين الاعتبار ما للنص العربي من سمات خاصة لا بد من معرفتها، والدراية بطبيعتها حتى لا يخطيء في فهمها، مثل: طبيعة اللغة الاشتقاقية، والاشتراك اللغوي الذي يعرض لألفاظها ومعانيها، وغيرها من السمات اللغوية المميزة لنصوصها، والتي تتطلب من العالم والمتكلم بها مراعاة معهود خطاب العرب في أساليب تحاورهم، ومجاري كلامهم، ومقتضيات أحوالهم. فهو هنا يسلط الضوء على مراعاة السياق بنوعية في فهم طبيعة النص.

- عند حديثه عن دور القرائن السياقية في توجيه الدلالة، كتخصيص دلالة اللفظ العام، فاللفظ يبقى على عمومه إلى أن تأتي قرينه تسقط بعضا من الملامح الدلالية للفظ العام فتخصص دلالته.

- نصه على ضرورة التعويل على الحالات والمقالات عندما يشبه الاسم الاسم في صورة تقطيع الصوت والحرف؛ إشارة منه إلى أن القرائن السياقية لها أكبر الأثر في توجيه دلالة المشترك.

- وكذا يبرز اهتمامه للسياق بوضوح عند حديثه عن (تناسب الألفاظ مع الأغراض) حيث تتضمن حديثه في هذه الفقرة عن:

  - لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ.
  - لكل نوع من المعاني نوع من الأسماء.
  - لكل مقام مقال، فما ذكره الجاحظ هنا في مجمله يبرز اهتمامه بالسياق، وذلك من خلال ربط السياق الداخلي للنص (مراعاة اختيار الألفاظ) بالسياق الخارجي للنص (المقام أو الغرض الذي ترد فيه تلك الألفاظ.

- أسلوب المفارقة الذي بدا في غير واحدة من قصصه[1] التي تعود سردها بين الفينة والفينة لرفع الملل عن القاريء يعتبر توظيفا عمليا أيضا لدور السياق في

(١) ينفظر في ذلك من صفحات الحيوان على سبيل المثال: (٤٩٥/٣) ، (٤، ٨٤/٥) .

تحديد الدلالة المقصودة.

- حديثه عن أن لكل قوم وطائفة من العلماء ألفاظا تخصهم يعد مظهرا آخر من مظاهر اهتمامه بمراعاة السياق الخارجي للنص (الشق أو المكون الاجتماعي) فالوقوف على توجه المتكلم الثقافي والعقائدي يفسر بشكل كبير إشكال النص.
- حديثه في فقرة (اختيار الألفاظ وصوغ الكلام) يبرز اهتمامه بدور السياق في كشف مراد المتكلم عن طريق:
  - **أولا:** سياق النص، وذلك من خلال:
    - اختيار ألفاظ سلسة غير متكلفة يسهل فهمها.
    - اختيار ألفاظ تتساوق والغرض من الخطاب.
  - **ثانيا:** السياق الخارجي، وذلك من خلال:
    - مراعاة حال المخاطبين.
    - مراعاة الموقف الذي يلقى فيه الخطاب.
- ومن مظاهر عناية الجاحظ بالسياق، ما عبر عنه بقوله: "و للناس أن يضعوا كلامهم حيث أحبوا، إذا كان لهم مجاز، إلا في المعاملات"[(١)] فيفهم من عبارته هنا أنه:
  - يأمن اللبس في الفهم والتأويل اعتمادا على السياق.
  - الدلالة العرفية معتبرة في فهم النص، بل ويتبادر إليها الذهن قبل الدلالة المعجمية- أحيانا- وذلك حسب ما تقتضيه قرائن الأحوال، فالجاحظ يشير هنا إلى أن الدلالة لا تتأتى فقط من مجرد ألفاظ أو سياقات نصية، وإنما قد تأتي أيضا من النظر في قرائن الأحوال، والمشاهدات العقلية، وغيرها من السياقات المقامية غير اللغوية.

وعليه يمكن القول بأن ما **أصل له الجاحظ في هذه النظرية الدلالية هو في الحقيقة أسس لتداوليات الخطاب تنظيرا وإحالة وإنتاجا وفهما؛ إذ إن الفهم المنضبط للنص لا يتحقق إلا باستحضار جميع مكونات الخطاب اللغوية منها**

(١) الحيوان: (٧٦/٤) .

والمقامية.

ومن ثم يخلص البحث إلى القول بأن الفكر التراثي متمثلا في فكر الجاحظ في مصنفه الحيوان سبق العلم الحديث في التأسيس والتنظير لمثل هذه الفكرة، وإن اختلفت المصطلحات المعبرة عنها؛ لاختلاف طبيعة ومنهج وغاية الدراسة بين القدامى والمحدثين، فمصنفات القدامى تتميز بطابعها الموسوعي، فما أصل له الجاحظ في هذا البحث اتسم بالعمق والدقة والشمولية في التأصيل والتنظير والاستشهاد والإحالة يجعل البحث يرى أن إطلاق مصطلح نظرية على فكر الجاحظ في السياق يبخسه حقه دون أية إسراف أو مغالاة.

المبحث الثاني
الاشتراك اللغوي عند الجاحظ

(بصورتيه: تعدد المعنى للفظ، وتعدد اللفظ للمعنى)

المطلب الأول
تأصيل لظاهرة الاشتراك اللغوي عند الجاحظ
(صوره، سبب وقوعه)

أفردت هذا المبحث لعرض النصوص الواردة في الحيوان عن ظاهرة الاشتراك اللغوي، وتحليلها للوقوف على فكر الجاحظ في هذه الظاهرة الدلالية، وإن كان العنوان يبدو للوهلة الأولى أنه بعيد عن موضوع البحث (النظرية السياقية عند الجاحظ) إلا أنه يتبين بعد الدراسة والتحليل لهذه النصوص الجاحظية فيما يتعلق بهذه الظاهرة الدلالية أن هذا المبحث وثيق الصلة بعنوان البحث، بل إنه يعد دراسة تطبيقية لإعمال السياق، وإبرازا لدور عناصره المقالية والمقامية في تحديد دلالة اللفظ على وجه الدقة، فهناك دلالات تحمل وجوها عدة، ويتطرق إليها الاحتمال فتفتقر إلى بيان من دليل أو قرينة تفسر هذا الاحتمال وتبين المعنى المنشود، وهذا النوع يحتاج في بيانه إلى الفهم والنظر إلى مفردات التراكيب وما يحيط بها من مقامات بحسب استعمالها السياقي .

ولبيان ذلك أبدأ بعرض النصوص التراثية التي وردت في الحيوان والتي تمثل فكر الجاحظ في هذه الظاهرة، وهي على النحو التالي:

١- " والناسُ يسمُّون الأرضَ جماداً، وربّما يَجعلونها مَوَاتاً إذا كانتْ لم تُنْبِتْ قديماً، وهي مَوَات الأرض وذلك كقولهم: (مَنْ أحيَا أَرضاً مواتاً فهي له)"[(١)].

٢- " والإنسانُ فصيح وإنْ عبَّرَ عن نفسه بالفارسيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة، وليس العربيُّ أسوأ فهماً لِطَمْطَمَةِ الرومِيّ من الرومي لبيانِ

(١) الحيوان: (٢٦/١) .

لسان العربيّ، فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له: فصيح، فإذا قالوا: (فصيح وأعجَم) فهذا هو التأويل في قولهم: أعجم وإذا قالوا: (العرب والعجم) ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنَّما يَعنُون أنَّه لا يتكلَّم بالعربيَّة، وأنَّ العربَ لا تفهم عنه"[1].

٣- "(طيور الليل) ويقال للطائر الذي يخرجُ من وَكره باللَّيل البومة والصَّدَى والهامة والضُّوَع والوَطواط والخُفَّاش وغُراب اللَّيل ... وهذه الأسماء مشتركة"[2].

٤- "هذا قولُنا في كتب الهندسة والتنجيم ... فكيف لو كانت هذه الكتب كتبَ دينٍ وإخبار عن الله ... ويتكلَّمَ في وجوه الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ....، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ، والمقابلاتِ التي تَلقَى الأخبارَ العامِّيةَ المخرَج فيجعلَها خاصيَّة، وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، ...، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم، ....، وحتَّى يعرف المثلَ والبديع والوحي والكناية، ... وحتَّى يعرف أبنيةَ الكلام، وعاداتِ القوم وأسبابَ تفاهمِهم ... من كثير ومتى لم يعرفْ ذلك المترجم أخطأَ في تأويل كلامِ الدين ... "[3].

٥- "(ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم) فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر فمن لم يعرفْها جَهِل تأْويل

(١) الحيوان: (٢٢/١) .
(٢) السابق: (٢٩٩/٢
(٣) السابق: (٧٨/١) .

الكتابِ والسُّنَّة، والشاهد والمثلِ، فإذا نظَر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أَهل هذا الشأن، هلك وأَهلك"[١].

٦- " والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها بكذا ... إنما يريد بها كذا"[٢].

٧- "وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفت أماكنُه ودلائله، فإذا كان كذلك فإنَّما يعرف فضلُه بالمتكلّمين به، وبالحالات والمقالات وبالذين عُنُوا بالكلام، وهذه جملةٌ وتفسيرها يطول"[٣].

٨- ومن أعجب التأويل قول اللّحياني: الجبّار من الرجال يكون على وجوه: يكون جبّاراً في الضّخَم والقوَّة، فتأوّل قوله تعالى: "إنّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ" [المائدة: ٢٢] قال: ويكون جبَّاراً على معنى قتّالاً، وتأوّل في ذلك: "وَإِذَا بَطَشْتمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ" [الشعراء: ١٣٠] وقولَه لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: "إِنْ تُرِيدُ إلاّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ" [القصص: ١٩] أي: قتّالاً بغير حقّ، والجبارُ: المتكبّر عن عبادة الله تعالى وتأوّل قوله عَزَّوَجَلَّ: "وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً" [مريم: ١٤] وتأوّلَ في ذلكَ قول عيسى: "وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً" [مريم: ٣٢] أي: لم يجعلْني متكبّراً عن عبادته، قال: "الجبَّار: المسلَّط القاهر "وقال: وهو قوله: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" [ق: ٤٥] أي: مسلّط، فتقهرهم على الإسلام، والجبَّار: الله، وتأوَّل أيضاً (الخوف) على وجوهٍ، ولو وجدَه في ألفِ مكانٍ لقال: والخوفُ على ألف وجه وكذلك الجبَّار، وهذا كلّه يرجع إلى معنًى واحد "[٤].

(١) الحيوان: (١٠/١) .
(٢) السابق: (٢٠٩/١) .
(٣) السابق: (٣٠٦/١) .
(٤) السابق: (٣٤٥/١) .

٩- "وأمّا قوله: "فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ " [المائدة: ٣١] فلم يكنْ به على جهة الإخبار أنّه كانَ قَتَلَهُ ليلاً، وإنما هو كقوله: "وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحرِّفاً لِقتال أوْ مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقدْ باء بِغضبٍ مِنَ اللّهِ" [الأنفال: ١٦] ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللَّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ من عادات الناس، كان من فرَّ من الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيد، وإنما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ من ساعاتِ أعمال الناس وذلك هو النّهارُ دون اللّيل ... ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس ... "[١].

١٠- "والغراب كثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدَّم في الشؤم.
دفاع صاحب الغراب، قال صاحبُ الغراب: الغرابُ وغير الغراب في ذلك سواءٌ، والأعرابيُّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة وتَوهَّمَ فيها الخيرَ، وإن شاء اشتقَّ منها الشرّ، وكلُّ كلمة تحتملُ وجوها"[٢].

١١- "وقوله تعالى: "طَيِّبَاتِ " تحتمل وجوها كثيرة"[٣].

١٢- "وقد يقع اسمُ الخيانة على ضروب"[٤].

١٣- "المجاز والتشبيه (الأكل) [يأتي على أكثر من معنى] ... وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل، وعلى الاشتِقاق، وعلى التشبيه[٥].

تحليل ومناقشة:

مما سبق يتبين أن موقف الجاحظ من وقوع المشترك اللغوي في اللغة يتمثل فيما يلي:

---

(١) الحيوان: (٤١٣/٣) .
(٢) السابق: (٤٤٤/٣) .
(٣) السابق: (٥٧/٤) .
(٤) السابق: (٥٩/٤) .
(٥) السابق: (٢٣/٥) .

- يجوز الجاحظ وقوع المشترك الدلالي في اللغة في حال تركيبها، فهناك دلالات ألفاظ بائنة بنفسها، ودلالات أخرى مشتركة ومفهومها ملتبس تحتاج إلى مزيد من القرائن لفهمها.

- أن كثرة وجود ألفاظ تدل على شيء واحد (المترادفات) يرجع إلى تعدد الاعتبارات الخاصة بكل منها ثم تنوسيت بكثرة الاستعمال وطول العهد، وإلا فإن الأصل أن يكون لكل لفظ ملحظ واحد يميزه عن غيره، فالأرض تسمى جمادا؛ لسكونها، وتسمى مواتا؛ لعدم إنباتها ما يكون سببا في الحياة، فالترادف هنا وقع من اعتبارين مختلفين، وليس من جهة واحدة.

- أن إمكانية تبادل الألفاظ المترادفة في جميع السياقات شرط أساس للقول بالترادف، أما التناوب الجزئي بينها؛ لاشتراكها في جزء من المعنى في بعض السياقات دون بعض لا يعني أنهما مترادفان، بل يجب الانتباه لذلك، ومراعاة الاعتبارات الخاصة بكل لفظ وسياقاته وذلك على النحو الذي سبق من تفسير الجاحظ لفظة (الأعجم) في السياقين السابقين.

- أن الاستعمال اللغوي للناطقين وما ينتج عنه من تساهل في مراعاة الفروق الدقيقة بين الألفاظ قد يكون السبب الأكبر في وقوع الاشتراك في اللغة (الترادف) والعامل الحقيقي وراء هذا الركام الهائل من الأسماء المشتركة المتعددة التي ذكرت في كتب اللغة، كالمسميات التي ذكرها الجاحظ (للطائر الذي يخرجُ من وَكره باللَّيل) لذلك يجب مراعاة الدلالة الأصلية لكل لفظ منها؛ إذ إن كل لفظ من تلك الأسماء المشتركة - البومة والصَّدَى والهامة والضُّوَع والوَطواط والخُفَّاش وغُراب اللَّيل - يختص في أصل الوضع بدلالة واحدة فقط.

- تصريحه بأن السياق في كثير من الأحيان كان السبب في تناوب لفظتين على دلالة واحدة[1].

- إشارته أيضا بوقوع الاشتراك في اللغة عند إيراده كثيرا من المسميات المجازية المنبثقة من الدلالة الأصلية، حيث تضمن حديثه إلى أن مأتى هذا التعدد

(١) يراجع في ذلك النصوص: (٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩،)

الدلالي لبعض الاستعمالات المجازية هو تنوع المعنى انطلاقًا من دلالة واحدة؛ إما عن طريق الاشتقاق، أو المثل، أو التشبيه[١] بين الدلالة الفرعية والدلالة المحورية (المركزية) المنبثقة عنها.

- أشار إلى أن السياق بنوعيه قد يحمل اللفظ الواحد أكثر من دلالة، عبر عن ذلك الجاحظ بقوله: "وكل كلمة تحتمل وجوها" فأعجبني تعبيره عن التعدد الدلالي للفظ بالاحتمال؛ إذ إن أصل الوضع يوجب بأن يكون كل لفظ دلالة واحدة، ثم يأتي السياق ويحمل اللفظ هذه الأوجه الدلالية.

- إشارته في أكثر من موضع إلى مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الاشتراك ما أمكن حيث إن للتركيب معنى غير معنى الإفراد، فاللفظ عند الإفراد يكون له دلالة واحدة فقط ولكن عند التركيب يتحمل اللفظ أكثر من دلالة حسب مساقات الورود[٢].

- إشارته في أكثر من موضع بجواز وقوع الاشتراك اللغوي السياقي في القرآن عند تفسيره للألفاظ الواردة في شواهده القرآنية، فعند تفسير الجاحظ لإحدى المفردات القرآنية قال ما نصه: "إذ كان اللفظ لم يوضع على جميع ما تعرفه النفوس من جهة استقصاء اللفظ"[٣] إذ يفهم من هذه العبارة أن المفسر قد لا يستقصي جميع استعمالات اللفظ في السياقات المختلفة التي يرد فيها، وهذا يؤكد ما أشار إليه البحث سابقا من أن اللفظ قد يحتمل أكثر من دلالة بفعل السياق والاستعمال.

- أن الدلالة العرفية معتبرة بحسب ما تقتضيه مجاري العرب في محاوراتهم، واستعمالاتهم، وهذا الاعتبار قد يكون سببا في أن يتحمل اللفظ أكثر من دلالة، فعند تفسير الجاحظ لقوله تعالى "فأصبح من النادمين" ذكر أن للفظ دلالة عرفية (مجازية) بجانب دلالة النص الظاهرة (المعجمية) واعتمد الجاحظ في تفسيره هنا الدلالة العرفية، حيث قال: "ولو كان المعنى وقع على ظاهر

(١) يراجع في ذلك النصوص: (١٠، ١١، ١٢، ٨، ١٣)
(٢) يراجع في ذلك النصوص: (٤، ٥، ٦، ٧، ٨) .
(٣) الحيوان: (٢٧٢/٤) .

اللفظ دون المستعمل في الكلام من عادات الناس كان ... "[١] وعليه فإنه يفهم من هذا الكلام أن المشترك اللغوي جائز الوقوع في اللغة ولكن باعتبارين مختلفين، فهو هنا باعتبار الوضع، وباعتبار العرف تحمل دلالتين.

- أن الوضع (المعجمي) والاستعمال(السياقي) والحمل(ما يتبادر إلى ذهن المتلقي) يكون سببا في الاشتراك، وتحمل اللفظ وجوها من الدلالات فقوله عند تفسيره لإحدى المفردات القرآنية " ... إذا لم يوجب عليها ظاهر لفظ القرآن"[٢] دل على أن هناك دلالة مؤولة للفظ بجانب دلالته الظاهرة، فالاشتراك الدلالي هنا حاصل باعتبارين الوضع، والاستعمال أو الحمل.

- إشارته إلى أن الاشتراك اللغوي من مظاهر النص القرآني، وذلك عند حديثه عن شروط المترجم لكتاب الله إلى لغة أجنبية، فذكر أن النص القرآني له خصوصية أسلوبية ودلالية لا تتوفر لغيره من النصوص، فيقع لألفاظه الإجمال، والاشتراك، والتجوز، والتأويل، والتشابه والإشكال، وهذه كلها صور تعبر عن الاشتراك اللغوي، فنبه المترجم أن يتنبه لهذا كله؛ حتى لا يخطيء في نقل المعنى المراد من النص، "وإذا كان المترجِم الذي قد تَرجَم لا يكمل لذلك أخطأ على قدْرِ نقصانه من الكمال".

- وكذا عند حديثه عن (ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم) ذكر أن النص العربي له سمات خاصة لا بد من معرفتها، والدراية بطبيعتها حتى لا يخطيء في استعمالها، وفهم نصوصها، وتفسير شواهدها، وعد من هذه السمات، ظاهرة الاشتراك اللغوي التي تعرض لألفاظها ومعانيها بفعل السياق، وذلك عندما قال: " ولتلك الألفاظ مواضع أخر ولها حينئذ دلالات أخر ".

- الجاحظ نبه على اللغوي والمفسر للنصوص والشواهد العربية والمترجم للقرآن الكريم بضرورة الاعتماد أو التعويل على معهود خطاب العرب، والالتزام بهذا المعهود العرفي العربي عند تفسير الألفاظ العربية؛ إذ لا يستقيم فهم النص دون الإحاطة بها، ولا ينضبط تفسير النص دون أن يجري على ما تعرفه العرب

(١) الحيوان: (٤١٢/٣) .
(٢) السابق: (٤٩٩/٦) .

في محاوراتها، ومجاري كلامها يقول الشاطبي في ذلك: " لَا بُدَّ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ مِنِ اتِّبَاعِ مَعْهُودِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي لِسَانِهِمْ عُرْفٌ مُسْتَمِرٌّ، فَلَا يَصِحُّ الْعُدُولُ عَنْهُ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عُرْفٌ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْرَى فِي فَهْمِهَا عَلَى مَا لَا تَعْرِفُهُ هَذَا جارٍ فِي الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيبِ"[1].

(١) الموافقات: (١٣١/٢) .

المطلب الثاني

بحث الألفاظ التي تعددت دلالتها بفعل التركيب (اختلاف مساقات الورود)، والاستعمال المجازية

(الجبار / خيانة / الطيبات/ الخوف/الأكل / الذوق)

البحث في هذا المطلب يثبت عمليا كيف يقع الاشتراك في دلالات الألفاظ، من خلال الاستئناس ببعض الألفاظ التي ذكرها الجاحظ كان لاختلاف سياق الورود، أو استعمالا مجازيا دور في التعدد الدلالي لهذه الألفاظ.

أولا: التعدد الدلالي بفعل السياق / التركيب / اختلاف مساقات الورود:

(الجبار)

قال الجاحظ:

"ومن أعجب التأويل قول اللّحياني: الجبّار من الرجال يكون على وجوه ... "[(١)].

الوجه الأول: (الضَخِم والقوة)

في هذا النص نقل الجاحظ عن اللحياني ذكره أكثر من دلالة للفظ الجبار، متعجبا من صنيع اللحياني لإشراكه أكثر من دلالة للفظ واحد، وتعجب الجاحظ هنا إنما يتأتي من أن هذا التعدد الدلالي كان بسبب تعدد مساقات ورود لفظ الجبار، فالسياق في كل موضع وردت فيه هذه اللفظة هو الذي وجه دلالتها حسب ما اقتضته قرائنه المقامية والمقالية، فمعنى (الضِخَم والقوة) في قوله - تعالى: "إِنّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ" [المائدة: ٢٢] إنما أتى مما فرضته سياق الآية من معطيات لغوية ومقامية محيطة بالسياق النصي للآية، فالقرائن اللغوية تمثلت في ألفاظ جاورت اللفظة محل الشاهد كان لها أكبر الأثر في إكساب لفظ (الجبار) هنا معنى الضخم والقوة، من مثل: ريع وتعني: القصور الطوال[(٢)]، ومصانع وتعني: القصور المشيدة

(١) الحيوان: (٣٤٥/١) .

(٢) البحر المحيط: (١٧٩/٨، ١٧٨) .

المحكمة[١] والبطش وتعني (السطوة والأخذ بالعنف في غير حق)[٢] فهذه المعاني لتلك المفردات اللغوية التي جاورت لفظ الجبار أثرت في توجيه دلالة اللفظة إلى معنى الضخم والقوة، هذا بالإضافة إلى السياق الحالي الذي صحب السياق النصي للآيات، فالمقام هنا مقام توبيخ وتهكم وإنكار عليهم "فَيَكُونُ الْكَلَامُ مَسُوقًا مَسَاقَ الْمَوْعِظَةِ مِنَ التَّوَغُّلِ فِي التَّرَفِ وَالتَّعَاظُمِ"[٣] بقوة البدن والنفوذ التي هي في الأصل من النعم التي أنعم الله بها عليكم ثم ظلمتم أنفسكم بتجبركم على غيركم، فقال لهم: "اتقوا عقاب الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض"[٤] فَقَوْلُهُ تعالى: "وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ" أَعْقَبَ بِهِ مَوْعِظَتَهُمْ عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا بِأَنَّ وَعْظَهُمْ عَلَى الشِّدَّةِ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْعُقُوبَةِ"[٥] فتبين بذلك أن السياق بعناصره هنا تضافرت على إكساب اللفظة هذه الدلالة.

الوجه الثاني: (قتالا بغير حق).

المعنى الثاني الذي نقله الجاحظ عن اللحياني للفظ الجبار هو "قتالا بغير حق"[٦] وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: "إِنْ تُرِيدُ إِلاّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ"[القصص: ١٩] فالذي حدد معنى اللفظة هنا تلك المفردات القرآنية السابقة واللاحقة للفظ الجبار، فالقرائن المقالية من ذكر ألفاظ: (تقتلني) و(قتلت نفسا) و(يبطش) و(عدو) و(وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) وجهت دلالة اللفظة هذا الوجه من المعنى، فناسب أن تكون اللفظة بهذا المعنى متفقة وما توحي به دلالات الوحدات اللغوية السابقة عنها، من قتل وبطش وعداء واللاحقة لها من ... خلال أسلوب النفي المراد به الإنكار من عدم صلاحه وإصراره على الْجَبَرُوتِيَّةَ، هذا بجانب أن اللفظة وردت في سياق يفهم منه أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هرب خوفا من

(١) البحر المحيط: (١٧٩/٨، ١٧٨) .
(٢) تفسير القرطبي: (١٢٣/١٣) .
(٣) التحرير والتنوير: (١٦٨/١٩) .
(٤) تفسير الطبري: (٣٧٧/١٩) .
(٥) التحرير والتنوير: (١٦٨/١٩) .
(٦) الحيوان: (٣٤٥/١) .

جريمة ارتكبها فـ"أَصْبَحَ خَائِفًا مِنْ أَنْ يُطَالب بِدَم القبطي الَّذِي قَتَلَهُ وَهُوَ يَترَقَّبُ، أَيْ يُرَاقِبُ مَا يُقَالُ فِي شَأْنِهِ لِيَكُونَ مُتَحَفِّزًا لِلِاخْتِفَاءِ أَوِ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ لِأَنَّ خَبَرَ قَتْلِ الْقِبْطِيِّ لَمْ يَفْشُ أَمْرُهُ لِأَنَّهُ كَانَ فِي وَقْتٍ تَخْلُو فِيهِ أَزِقَّةُ الْمَدِينَةِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَلِذَلِكَ كَانَ مُوسَى يَتَرَقَّبُ أَنْ يَظْهَرَ أَمْرُ الْقِبْطِيِّ الْمَقْتُولِ"[١] فـ "لَمَّا أَثْبَتَ لَهُ الْجَبَرُوتِيَّةَ [القتل المتكرر]نَفَى عَنْهُ الصَّلَاحَ"[٢].

ومن ثم تبين أن السياق بقرائنه هو الذي وجه دلالة لفظ الجبار إلى معنى القتل.

الوجه الثالث: (المتكبِّر عن عبادة الله تعالى)

فسر اللحياني -أيضا فيما نقله عنه الجاحظ - بـ"المتكبر عن عبادة الله"[٣] وعند النظر في السياق القرآني الذي وردت فيه المفردة القرآنية، وهو قوله - تعالى - "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" [القصص: ٥٩] نجد أن السياق المقالي الذي وردت فيه اللفظة هو الذي حدد هذا الوجه الدلالي، فألفاظ (الجحد) و(العصي) و(العند) هي التي فرضت معنى التكبر على لفظة الجبار، حتى تتماشى مع دلالات الوحدات اللغوية المجاورة لها في النظم القرآني، وبهذا المعنى أيضا جاء في تفسير (الجبار) في قوليه سبحانه وتعالى مخبرا عن سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: وتأوَّل قوله عَزَّوَجَلَّ: "وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً" [مريم: ١٤] وتأوّل في ذلك قول عيسى: "وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً" [مريم: ٣٢].

فظهر بذلك أن السياق اللغوي للآية الكريمة هو الذي حدد دلالة لفظ الجبار هنا.

الوجه الرابع: (المسلَّط القاهر)

المعنى الرابع الذي نقله الجاحظ عن اللحياني للفظ الجبار هو "المسلَّط القاهر"[٤] وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" [ق: ٤٥] فهذه الآية

(١) التحرير والتنوير: (٩٤/٢٠) .
(٢) البحر المحيط: (٢٩٤/٨) .
(٣) الحيوان: (٣٤٥/١) .
(٤) السابق ذاته.

"اسْتِئْنَاف بياني ناشئ عَنْ قَوْلِهِ تعالى: "فَاصْبِرْ عَلى مَا يَقُولُونَ ... " [ق: ٣٩] فَهُوَ إِيغَالٌ فِي تَسْلِيَة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَعْرِيضٌ بِوَعِيدِهِمْ، فَالْخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي وعد الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ الله سَيُعَاقِبُ أَعْدَاءَهُ "[1] ثم جاء قَوْلُهُ تعالى: "وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" تطمين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ غير مسؤول عَنْ عَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا بُعِثَ دَاعِيًا وَهَادِيًا، وَلَيْسَ مَبْعُوثًا لِإِرْغَامِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ"[2] فمعنى المسلط أو المرغِم إنما فرضه السياق النصي والحالي للآيات الكريمات، فالمعطيات السياقية هي التي وجهت اللفظ لهذه الدلالة، فاللفظ وردت في سياق خطاب الله مع رسوله الكريم الذي يئس من تكذيبهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره الله سبحانه على سبيل التسرية لقلبه بأنه لم يبعث فيهم متسلطا أو مجبرا إياهم على الإسلام، بل هو فقط منذر لمن يخشاها، ومذكر لمن أراد أن يتذكر، وليس عليهم بمصيطر، فتلك سنة الله في إرسال رسله ومنهج رباني لأنبيائه، أن يرشدوا وينذروا ويذكروا لمن كان في قلبه سمع أو ألقى السمع وهو شهيد، فالنظم النصي من سوابق ولواحق للآيات الكريمات يفرض هذا المعنى للجبار، فالتذكير بالقرآن قي قوله تعالى: "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" يوجه اللفظ لهذه الدلالة، فالتذكير هنا معنوي بما ورد في القرآن من حكم وعظات وآيات معجزات.

فظهر بذلك أن البناء التركيبي للآيات الكريمات وحال مساق الورود هو الذي حدد تلك الدلالة للفظة الجبار في هذا السياق.

الوجه الخامس: (الجبَّار: اللّه)

المعنى الخامس الذي نقله الجاحظ عن اللحياني للفظ الجبار هو " الله"[3] جل في علاه. الوارد في قول الله سبحانه وتعالى: "هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ" [الحشر: ٢٣] فالْجَبَّار هنا هو الله سبحانه" الْقَاهِرُ الْمُكْرِهُ غَيْرُهُ عَلَى الِانْفِعَالِ بِفِعْلِهِ، فَاللَّهُ جَبَّارُ كُلِّ مَخْلُوق على الانفعال لِمَا كَوَّنَهُ عَلَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ اجْتِيَازَ مَا حَدَّهُ لَهُ فِي

(١) التحرير والتنوير: (٣٣٣/٢٦) .
(٢) السابق ذاته.
(٣) الحيوان: (٣٤٥/١) .

خِلْقَتِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ الطَّيَرَانَ وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَوَاتُ الْأَرْبَعِ الْمَشْيَ عَلَى رِجْلَيْنِ فَقَطْ، وَكَذَلِكَ هُوَ جَبَّارٌ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى قَبُولِ مَا أَرَادَهُ بِهَا وَمَا تَعَلَّقَتْ بِهِ قُدْرَتُهُ عَلَيْهَا، وَإِذَا وُصِفَ الْإِنْسَانُ بِالْجَبَّارِ كَانَ وَصْفَ ذَمٍّ لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ يَحْمِلُ غَيْرَهُ عَلَى هَوَاهُ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الْقَصَص: ١٩] "[١] فالمقام السياقي هنا مقام تعظيم وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما يشركون، فاقتضى اللفظ الجبار في هذا السياق هذا الاسم الشريف من أسماء الله الحسنى.

وبعد عرض السياقات المختلفة التي وردت فيها اللفظة محل الشاهد والتي بسببها تعدد الأوجه الدلالية للفظة الجبار، فكل سياق قرآني فرض على اللفظة بما اشتمل عليه من قرائن مقالية ومقامية كان لها الدور الأساس في تحديد دلالة اللفظ بما يتلائم ومساق ورودها، فثبت بذلك أن **أن الألفاظ تتعرض بسبب التركيب، وورودها في سياقات مختلفة إلى وجوه كثيرة من التغير الدلالي هذه الأوجه الدلالية المتعددة ضابطها النظر في القرائن ومقتضيات الأحوال والمقامات.**

وبالرجوع إلى تعقيب الجاحظ على قول اللحياني بتعدد دلالة لفظ الجبار، وإنكاره عليه هذا المذهب من جواز الاشتراك الدلالي للألفاظ في أصل الوضع، وأرجعه إلى أن مأتاه اختلاف مساقات الورود، وأرجع هذه الأوجه إلى دلالة محورية أو مركزية واحدة، ونصه: "و هذا كله يرجع إلى معنى واحد"[٢] والأصل الذي ترجع إليه الاستعمالات السابقة(القتل، التسلط، التكبر، الضخم، العظمة) هو: "اشتداد وامتداد (ذاتي) يتجاوز ضَعْفًا أو خللًا (طارئًا)"[٣]من ذلك: "الجبّار من النخل - كشداد: الطويلُ الذي فات يَدَ المتناول/ العظيم. ونخلة جَبَّارة: فتية قد بلغت الطولَ وحَمَلَت"[٤] فهذا معنى حسي متحقق في الجبار من النخل، أما الاستعمالات محل الاستشهاد هنا فمتحقق فيها المعنى المعنوي للدلالة المحورية للجذر (ج ب ر)

(١) التحرير والتنوير: (١٢٢/٢٨) .
(٢) الحيوان: (٣٤٥/١) .
(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل: (٢٧٣/١) .
(٤) السابق: (٢٧٤/١) .

ومأتى تحقق المعنى المحوري فيها ما ذكر د/جبل: "جَبَرَه وأجبره: أكرهه وقهره (تجاوز بقوته إرادة الضعيف فأكرهه) ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]. و"الجبَّار كشداد: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًّا/ المتمرد العاتي ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] ".

كذا من الألفاظ التي أكسبها السياق أكثر من دلالة: **لفظ (الخيانة)**

قال الجاحظ في هذا:

"وقد يقع اسمُ الخيانة على ضروب، أوّلها: المالُ، ثمَّ يشتقُّ من الخيانة في المال الغشُّ في النصيحةِ والمشاورةِ، وليس لأحد أنْ يوجّه الخبرَ إذا نزل في أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحُرَم الرُّسل على أسمَج الوجوه إذا كان للخبر مذهبٌ في السَّلامة، أو في القُصُور على أدنى العيوب، وقد علمْنا أنّ الخيانةَ لا تخطَّى إلى الفرج حتّى تبتدئ بالمال، وقد يستقيم أن يكونا من المنافقين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة ولا تكون نساؤهم زواني، فيلزمهم أسماءٌ قبيحة"[١]

ذكر الجاحظ هذه التفسيرات للفظ الخيانة، وذلك عند معرض حديثه عند تفسير المفردة القرآنية "فخانتاهما" الواردة في قوله -تعالى- "ضَرَبَ الله مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنهُمَا" [التحريم: ١٠] إذ "لم يَعْنِ الخيانَةَ في الفرْج وقد يقع اسمُ الخيانة على ضروب"[٢].

بالوقوف على نص الجاحظ يتبين أنه صرح فيه بوقوع الاشتراك الدلالي للفظة الخيانة حسب ما ترد فيه من سياق يحدد معناها، فهو في آية التحريم السابقة فسر الخيانة فيها بالنفاق، أو الخيانة في المشورة "إذ كانتا تعايشانهما وتعرفان صدقهما، فكان ينبغي أن تصدقاهما وتؤازراهما "[٣] فكانت الخيانة من هنا"و الذي دعاه إلى هذا التفسير قرينة حالية أحاطت بسياق الآية، وهو التنزه

(١) الحيوان: (٤/٦٠) .

(٢) السابق ذاته.

(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل: (١/٦١٣) .

عن وصف زيجات الأنبياء بما لا يليق بحق أزواجهم الرسل، فكونهم في عصمة الأنبياء كفيل بعدم جواز تفسير الخيانة في النص القرآني بالزنى، وهذا وضح في قوله: "وليس لأحدٍ أنْ يوجِّه الخبرَ إذا نزل في أزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحُرَم الرُّسُل على أسمَجِ الوجوه إذا كان للخبر مذهبٌ في السَّلامة، أو في القُصُور على أدنى العيوب، وقد علمْنا أنّ الخيانةَ لا تتخطَّى إلى الفرج حتّى تبتدئ بالمال وقد يستقيم أن يكونا من المنافقين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة ولا تكون نساؤهم زواني، فيلزمهم أسماءٌ قبيحة" والدلالة المحورية للجذر المنبثق منه هذا اللفظ يتسع ليشمل الخيانة في النفس والعهد والمال والنصحية وليس الخيانة الزوجية المتمثلة في ارتكاب الفاحشة فقط، وعن التأصيل الدلالي للجذر (خ ون) يقول د/ جبل: "نقصٌ خطيرٍ -في خِفْيَةٍ أو لُطْفٍ- مِنْ بَاطِنٍ أو حَوْزَةٍ كان في داخِلِها"[(١)] وقد ورد في القرآن الكريم من لفظ الخيانة الذي يحقق المعنى المعنوي لهذا التأصيل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا الله مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] يريد: خيانة العهد والمواثيق وكذا قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] حيث: "يَخُونُ الواحد منهم نفسه من حيث كان ضَرَرُ معصيته عائدًا عليه، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] هِيَ التي تسترق النظر كما يقال أخذته عيني وهذه تزيد أن ذلك يتم خفية"[(٢)].

فظهر بذلك تعدد الوجوه الدلالية للفظ الخيانة حسب ما اقتضته مساقات ورودها في النصوص السابقة، والذي دعا الجاحظ إلى القول بتفسير لفظ الخيانة في آية التحريم بخيانة الرأي والمشورة هو السياق المقامي على النحو السابق.

ومن الألفاظ التي ذكرها الجاحظ أن السياق، واختلاف مساقات الورود كان السبب وراء تعدد دلالتها لفظ (الخوف)، ولفظ (الطيب) ولكن المقام لا يسع تفصيل القول فيهما على نحو ما سبق في لفظتي الجبار والخيانة، فالغاية من هذا المطلب تحققت من خلالهما.

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل: (٦١٢/١)
(٢) السابق: (٦١٣/١) .

ثانيا: التعدد الدلالي بسبب الاستعمال المجازي:

وعلى الجانب الأخر هناك ألفاظ ذكرها الجاحظ تعددت دلالتها بسبب استعمالها استعمالا مجازيا عن طريق المثل أو التشبيه، والاشتقاق منها لفظة (الأكل).

قال الجاحظ:

"(المجاز والتشبيه الأكل) وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه، ... فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في الكتاب: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لاَ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ" [آل عمران: ١٨٣]"(١)

وقال أيضا:

"و في "(باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل) وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظلْما إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نارا" [النساء: ١٠] وقوله تعالى عزَّ اسمُه: "أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ" [المائدة: ٤٢] وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحُلَلَ وركبوا الدوابَّ ولم ينفقوا منها دِرْهَماً واحداً في سبيل الأكل، وهذا مجازٌ آخر ... وإذا قالوا: أكَلَهُ الأسَد فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف وإذا قالوا: أكَلَهُ الأسْوَد فإنما يعنون النَّهْشَ واللَّدْغَ والعضَّ فقط ... وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: "أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً" [الحجرات: ١٢] ويقال: "هم لحوم الناس، ويقولون في باب آخر: فلانٌ يأكل الناس وإن لم يأكلْ من طعامهم شيئاً"(٢).

في النص السابق ذكر الجاحظ الاستعمالات المجازية للفظة (أكل) والتي وردت في السياقات القرآنية الكريمة السابقة؛ ويلاحظ أن خروج اللفظ من معناه

(١) الحيوان: (٦٠/٤) .
(٢) السابق ذاته.

الحقيقي إلى آخر مجازي لعلاقة المشابهة عن طريق الاشتقاق الدلاليي كان سببا في حدوث هذا التعدد الدلالي، وإلا فإن الأصل أن ترجع تلك الاستعمالات المجازية إلى دلالة مركزية أصلية.

والسياق بنوعيه كان سببا في الوقوف على هذا الانتقال من الوضع المعجمي إلى الاستعمال المجازي، فالأكل في قوله تعالى "تأكله النار" يعني تحرقه، والقرينة هنا حالية فالنار لا تأكل على جهة الحقيقة، وإنما استعير لها الأكل على جهة التشبيه، وجاء الأكل بمعنى الاسيلاء والنهب في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا "[(١)] وذلك لـ"تَسْمِيَة الشَّيْءِ بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ " فهو "إنما يجرجر في بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ، وَذَكَرَ فِي بُطُونِهِمْ تَنْبِيهًا على شرههم وَتَقْبِيحًا لِتَضْيِيعِ أَعْظَمِ النِّعَمِ لِأَجَلِ الْمَطْعُومِ الَّذِي هُوَ أحسن مُتَنَاوَلٍ "[(٢)] والقرينة هنا حالية ومقالية أيضا، فالنار والمال لا يؤكلان، والمقام مقام زجر ووعيد فناسب تلك الدلالة، ومثله -أيضا- مجيء الأكل في قوله تعالى: "أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ".

وأما الأكل في قوله تعالى: ""أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتا" فيعني الغيبة، وذكر صفات الناس بما يكرهون في غيابهم، والاستعمال القرآني هنا جاء على معهود خطاب العرب فـ"الْعَرَبُ تُشَبِّهُ الْغِيبَةَ بِأَكْلِ اللَّحْمِ، وَمِنْهُ قول الشاعر [الطويل]:

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ** وَإِنْ هَدَمُوا مجدي بنيت لهم مجدا[(٣)]

فهذا" تَمْثِيلٌ وَتَصْوِيرٌ لِمَا يَنَالُهُ الْمُغْتَابُ مِنْ عِرْضِ الْمُغْتَابِ عَلَى أَفْظَعِ وَجْهٍ وَأَفْحَشِهِ، وَفِيهِ مُبَالَغَاتٌ شَتَّى، مِنْهَا: الِاسْتِفْهَامُ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْرِيرُ، وَمِنْهَا: جَعْلُ مَا هُوَ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْكَرَاهَةِ مَوْصُولًا بِالْمَحَبَّةِ، وَمِنْهَا: إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى أَحَدِكُمْ وَالْإِشْعَارُ بِأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْأَحَدَيْنِ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى تَمْثِيلِ الِاغْتِيَابِ بِأَكْلِ لَحْمِ الْإِنْسَانِ حَتَّى جَعَلَ الْإِنْسَانَ أَخًا، وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْأَخِ حَتَّى جَعَلَهُ مَيْتًا ... وكَرَاهِيَةُ هَذَا اللَّحْمِ يَدْعُو إِلَيْهِ الطَّبْعُ، وكَرَاهِيَةُ الْغِيبَةِ

(١) البحر المحيط: (١٢١/٢) .
(٢) السابق:) ٥٢٠/٩)
(٣) البيت في الأغاني بلا نسبة: (١١١/١٧) .

يَدْعُو إِلَيْهَا الْعَقْلُ، وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُجَابَ، لِأَنَّهُ بَصِيرٌ عَالِمٌ، وَالطَّبْعُ أَعْمَى جَاهِلٌ "[1].

والاستعمال القرآني هنا جاء على جهة "ضَرَبَ الْمَثَلَ لِأَخْذِهِ الْعِرْضَ بِأَكْلِ اللَّحْمِ، لِأَنَّ اللَّحْمَ سِتْرٌ عَلَى الْعَظْمِ، وَالشَّاتِمُ لِأَخِيهِ كَأَنَّهُ يُقَشِّرُ وَيَكْشِفُ مَا عَلَيْهِ مِنْ سِتْرٍ، وَقَالَ تَعَالَى: مَيْتاً، لِأَنَّ الْمَيِّتَ لَا يُحِسُّ، وَكَذَلِكَ الْغَائِبُ لَا يَسْمَعُ مَا يَقُولُ فِيهِ الْمُغْتَابُ، ثُمَّ هُوَ فِي التَّحْرِيمِ كَآكِلِ لَحْمِ الْمَيِّتِ"[2] وعليه يتبين أن الأكل خرج في هذا السياق من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي متمثلا في هذا التصوير البياني المعجز الذي نفر من وقوع الأذى بالمؤمنين عن طريق ذكرهم بما يكرهون، فاستعمال اللفظ في معناه المجازي هنا كان آكد في النفس بهذا التصوير البليغ، ودلت عليه القرائن المقامية.

كما استشهد الجاحظ على استعمال الأكل في معنى مجازي بشعر أوس بن حَجَر [الطويل] الذي قال فيه:

وقد أَكَلَتْ أَظْفَارُه الصَّخْرُ كلما ** تَعَايا عليه طولُ مَرْقًى تَوَصَّلاَ[3]

فـ"جعل النحتَ والتَّنَقُّصَ أكلا[4] على سبيل التجوز لعلاقة المشابهة، وإلا فإن الصخر لا تأكل.

واستشهد أيضا بقول مِرْداس بن أُدَيّة [البسيط] الذي قال فيه:

وأدّتِ الأرضُ مِنِّي مِثْلَ مَا أَكَلَتْ ** وقرّبُوا لحِسَابِ القِسْطِ أعمالي[5]

فـ"أَكْلُ الأرض لما صارَ في بطنها: إحالتها له إلى جَوْهَرِها"[6]

وكذلك قول دُهْمان النهري [الرمل]:

سألْتِني عنْ أُنَاسٍ أَكلُوا ** شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأكَلْ[7]

(١) البحر المحيط: (٥٢٠/٩) .
(٢) السابق ذاته.
(٣) البيت في ديوانه: (٨٧) .
(٤) الحيوان: (٢٤/٥) .
(٥) السابق: (٢٥/٥) .
(٦) السابق ذاته.
(٧) البيت منسوب للنابغة الجعدي في شرح أدب الكاتب: ٩١، وفي التهذيب: (٢٠٢/١٠) بلفظ =

فأكل الثانية من باب المجاز لأن الدهر لا يأكل ولا يشرب " فهذا كله مختلف، وهو كله مجاز "[١].

فما أورده الجاحظ من استعمالات قرآنية، وشواهد شعرية جاء فيها لفظ الأكل مستعملا استعمالا مجازية إما عن طريق المثل، أو التشبيه، أو الاشتقاق الدلالي من الدلالي المركزية العامة للجذر (أ ك ل) والتي تدور حول: "طَحْن الحيّ المادّة المطعومة مَضْغًا بفمه وبلعُها: كالأكل المعروف ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣] والأُكُل شأنه أن يؤكَل"[٢]

فالمعاني المجازية السابقة جميعها دلالات معنوية تندرج تحت هذا المعنى المحوري العام للفظ أكل.

ومن الألفاظ التي ذكرها الجاحظ أيضا كان الاستعمال المجازي سببا في تعدد دلالتها لفظة (ذق) وقال فيها: "(باب آخر في مجاز الذوق) وهو قول الرَّجل إذا بالغ في عقوبةِ عبده: ذُقْ وكيف ذقته و: كيف وجدتَ طعمَه وقال بعض طبقات الفقهاء ممن يشتهي أن يكون عند الناس متكلماً: ما ذقت اليوم ذواقاً على وجهٍ من الوجوه ولا على معنًى من المعاني ولا على سبب من الأسباب ولا على جهةٍ من الجهات ولا على لون من الألوان، وهذا من عجيب الكلام، قال: ويقول الرجل لوكيله: ايتِ فلاناً فذُقْ ما عنده"[٣] فالذوق في هذا الباب استعمل استعمالا مجازيا، فكان هذا الاستعمال سببا في تعدد دلالة الذوق، ولكنها دلالات فرعية مشتقة من الجانب المعنوي للدلالة الحسية العامة لمادة (ذ ق قّ) وهي: "معرفةُ طَعْم الشيء أي وقعه على الحس بالتناول منه (أي إدخاله مَنْفَذَ الباطن): كمعرفة طَعْم المطعوم والمشروب بتناوله. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]-كقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، ومن هذا الإحساس الماديّ

=
هلكوا بدلا عن أكلوا، وفي ديوان النابغة الجعدي بلفظ هلكوا: ٩٢.
(١) الحيوان: (٢٨/٥) .
(٢) المعجم الاشتقاقي: (١٩١٩/٤) .
(٣) الحيوان: (٢٩/٥) .

المباشر ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]"[1].

وهناك استعمالات مجازية أخرى ذكرها الجاحظ لألفاظ ولكن مقام البحث هنا لا يسع لتفصيل القول في تحليل تلك المعاني المجازية، فيكفي المقام هنا الاستئناس ببعض منها على إثبات أن الاشتراك الدلالي سببه عند الجاحظ واحد من اثنين، إما تعدد مساقات الورود، أو الاستعمال المجازي، فتحقق الغرض من معالجة الشواهد السابقة كنماذج تطبيقية عملية على ما أصل له الجاحظ وعرضه البحث وحلله وناقشه في بداية المبحث التاني.

ومن خلال ما سبق من تنظير وتطبيق يخلص البحث إلى أن:

- الجاحظ عبر عن التعدد أو الاشتراك الدلالي بألفاظ غاية في الدقة مثل: (التحمل / له وجوه / يأتي على ضروب/ احتمالات، يؤول) ... هذه الألفاظ جميعها تفيد أن هذا الاشتراك كان بسبب عارض (السياق) فلسبب ما تحمل اللفظ هذه الأوجه من هذه الدلالات، وليس الاشتراك الدلالي هو الأصل في الوضع اللغوي، ولم يستخدم لفظ الاشتراك إلا في الألفاظ المترادفة لاعتبارات مختلفة، كما فعل في ذكر أسماء طيور الليل.
- السبب في وقوع الاشتراك في اللغة عند الجاحظ هو: اختلاف مساقات الورود (السياق الاستعمالي) أو الاستعمال المجازي، وليس أدل على هذا من موقفه من تفسير اللحياني لفظتي (الجبار) و(الخوف) بأكثر من معنى في سياقات مختلفة حيث أرجع هذه الاستعمالات السياقية إلى معنى واحد، وكان نص عبارته في هذا أنهم تناولوا الخوف على وجوه، ولو وجدوه في ألف مكان لقالوا: الخوف على ألف وجه، وكذلك الجبار، ثم ختم عبارته بقول يحسم رأيه بصورة جلية عندما قال: "وهذا كله يرجع إلى معنى واحد" كما يشترط أن تكون جميع المعاني على التساوي في الاستحقاق بالارتباط بذاك اللفظ المشترك وعليه فإن اللفظ الواحد الموضوع لعدة دلالات عن طريق الحقيقة هو الذي يندرج فقط تحت ظاهرة الاشتراك اللغوي، لذا خرجت ألفاظ الأكل والذوق من دائرة الاشتراك اللغوي.

(١) المعجم الاشتقاقي: (٧١٥/٢) .

- كان لقرائن السياق المقالية والمقامية في توجيه الألفاظ السابقة أثر في تحديد الدلالة، وتوجيه معنى المفردة القرآنية.

- المستقرئ لنصوص الجاحظ في الحيوان يراه يؤكد في أكثر من موضع أن الألفاظ تتعرض بسبب التركيب، ووروودها في سياقات مختلفة إلى وجوه كثيرة من التغير الدلالي هذه الأوجه الدلالية المتعددة ضابطها النظر في القرائن ومقتضيات الأحوال والمقامات حيث إنها "ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غَلِطَ في نظيره وغَالَطَ في مناظراته "[1].

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: (٢/٢٠٠) .

المبحث الثالث

مواطن التلاقي بين تأصيل الجاحظ للسياق والنظرية الغربية

لقد شغل السياق حيزا واسعا في الدرس اللغوي الحديث، وذلك لأهميته البالغة في توجيه دلالة النص؛ لذا استحوذ على انتباه الباحثين، فعكفوا على دراسة دلالات الألفاظ في سياقاتها دراسة منهجية علمية حتى صار نظرية متكاملة (النظرية السياقية) على يد العالم اللغوي الإنجليزي (فيرث) بعدما ارتبطت بجهود عدد من الباحثين الغربيين.

واهتم فيرث بدراسة السلوك اللغوي، ونظر إليه على أنه حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فهذا السلوك ليس وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة، ولكنه يحدث نتيجة تفاعل علاقات متشابكة ومتداخلة فيما بينها في إطار تواصلي، هذه العلاقات هي التي تنتج المعنى الذي يتكون في ذهن المتلقي في النهاية، وهذا يعني "أن المعنى عند فيرث لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة"[(١)] وذلك لأن الوحدات اللغوية تقع "في مجاورة وحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها "[(٢)] فدراسة معاني الكلمات عند أصحاب نظرية السياق تستلزم تحليلا للسياقات اللغوية والمقامية المختلفة تتوارد عليها في التراكيب المختلفة.

وعليه فإن دراسة فيرث[(٣)] للسياق جاءت وفق منهجية علمية مرتكزة على ثلاثة أركان رئيسة، هي:

- الاعتماد في التحليل اللغوي على سياق الحال أو المقام وما يتصل به من ظروف وملابسات.

---

(١) الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة ليحيى أحمد، مجلة عالم الفكر، بيروت، المجلد (٢) العدد (٣) ١٩٨١، ص: ١١٦.

(٢) علم الدلالة: أحمد مختار عمر: ٦٨، عالم الكتب، ط: ٥، ١٩٩٧م.

(٣) القرائن بين اللغويين والأصوليين لنادية رمضان النجار: ٣٨٥، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ٢٠١٥.

- تحديد بيئة الكلام المدروس.

- تحليل النص إلى عناصره اللغوية (صوتية، وصرفية، وتركيبية، ومعجمية).

وعليه فإن قيمة النظرية السياقية تكمن في جانبها الاجتماعي، ذلك أن العناية بالجانب اللغوي وحده في تحديد المعنى المقصود من الخطاب لا يجدي؛ لأنه خال من محتواه الاجتماعي والثقافي الذي له أهمية لا يمكن إغفالها في تحديد مقصود الخطاب، ف"الوحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوطا من صنع الكلمات، فهناك مكون لا كلامي يفرض دائما بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية، إن هذه المميزات غير الكلامية للوحدة الكلامية مهمة في تحديد معناها، كأهمية معنى الكلمة والمعنى النحوي ويدخل كلاهما في المكون الكلامي"[(١)] ومن ثم فإن نجاح العملية التبليغية يتطلب الإحاطة بالجانب السياقي للنص والمقام الاجتماعي المتعلق به.

هذا ومن خلال التأصيلات الجاحظية التي ناقشها البحث في المبحثين السابقين وقف البحث على نصوص في الحيوان تحيل وبصورة سليقية غاية في الدقة والتعبير والتنظير تتفق وحيثيات الدرس اللغوي الحديث وما طرحته من أسس ومفاهيم ومباديء تتعلق بهذه النظرية، حيث ظهر من تحليل هذه النصوص التراثية أن الجاحظ تعامل مع اللغة تعاملا حيا وفعالا، فإشارات الجاحظ في هذه النصوص التنظيرية والتطبيقية تبين أن اللغة لا تنفك عن ملابسات استعمالها، ظهر ذلك من خلال متابعته لمجريات الواقع اللغوي المستعمل، عند تفسيره للمفردات القرآنية، فخرج بدلالة اللفظة عما يقتضيه ظاهرها إلى ما يقتضيه السياق الاستعمالي، رابطا في ذلك السلوك اللغوي بالمحيط الخارجي وجميع ملابساته الاجتماعية، والنفسية والثقافية والفكرية، مدركا بأن المعنى المنضبط هو الناتج عن معطيات كل من النظام الداخلي للبناء التركيبي للنص ومعطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي، منخرطا في البيئة العربية التي دارت فيها المحاورات الكلامية عند حديثه عن ضرورة التعويل على معهود الخطاب العربي كمرجعية لغوية اجتماعية في فهم النصوص وضبط عملية التأويل، ولعل

(١) اللغة والمعنى والسياق جون لاين: ٢٧، ٢٨

هذه المرجعية تفتقدها النظرية الغربية، ربما لكثرة تعدد أصول هذه اللغات الأوروبية كما ذكر[1] أستاذنا الدكتور جبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن جانب آخر فإن حديثه عن ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي تمثلها عبارته المشهورة (لكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل) يتجلى بصورة دقيقة عند حديثه عن المقامات السياقية لمواطن الإيجاز والاسهاب، فحديثه هنا عن ضرورة مناسبة اللغة للمقام الذي تجري فيه عملية التواصل يتفق وحديث المحدثين عن سياق الموقف وما يمثله من حال المتكلم والمخاطب وموضوع الخطاب.

كما ظهر اعتناء الجاحظ بالشق الاجتماعي للغة أيضا من خلال حديثه عن تلك الألفاظ التي كره استعمالها لأسباب اجتماعية واستعيض عنها بأخرى، وهذا دليل على أن اللغة لا تنفك عن السياق الاجتماعي، إضافة إلى بنائها الداخلي.

وكذا ظهر اعتناؤه بالمكون الاجتماعي للغة من خلال تفسيره للمفردة القرآنية؛ إذ لم يتوقف عند المعنى المعجمي لها وإنما تخطاه إلى السياق العرفي أو الاجتماعي للمقام الذي سيق فيه.

وفي حديثه عن الإشارات الجسمية، والتعبيرات الجسدية، والانفعالات النفسية، والملامح الأدائية التطريزية المصاحبة للحدث الكلامي "حكمة تداولية حية، تؤسس لقاعدة تواصلية تسبق عصرها بقرون من الزمن، حيث إن تعابير الوجه وتفاصيله وحركات المتكلمين فيما بينهم، هي في ذاتها لغة، ومعان تكميلية دقيقة للعملية التواصلية.[2]"

أيضا تأصيلات الجاحظ التي تتحدث عن ضرورة تغير صفات الخطاب وعناصره وفقا لحال ومنزلة المخاطب والأحوال التي تعتري الخطاب، يدخل في نطاق السياق العاطفي بحد تعبير المحدثين والذي يعتبر عاملا مهما في نجاح العملية التبليغية لدى المتلقي.

(١) المعنى اللغوي: ١٦٤

(٢) ينظر: ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب -دراسة من منظور لساني-: ١٠٤ لنعيمة بن ترابو، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير لكلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير، بسكرة بالجزائر، ٢٠١٠م.

كما تضمنت النصوص التراثية للجاحظ حديثا عن "أثر السياق الثقافي في التمييز بين الحقيقة والمجاز، وهو أمر وثيق الصلة بإجلاء المعنى، فالوقوف على ثقافة المتكلم ومعتقداته يبين ذلك"[١].

كذا فإن تأصيلات الجاحظ التراثية أظهرت أنه كان على وعي بمعطيات الدرس التداولي الحديث حين تضمن حديثه عن القوة الإنجازية للأفعال الكلامية عند تطرقه التفسيرات المقامية التي خالفت مقتضى الظاهر، وعرضه لتلك الاستعمالات المجازية المتعددة لبعض الأفعال والتي اقتضاها السياق ومقتضيات الأحوال التي صاحبت البيئة اللغوية للنص، فالكلام المنقول (فعل القول) يحمل دلالات مختلفة (الفعل المتضمن) يحددها حال المتكلم (الفعل الناتج) يطبق هذا التنظير على كلامه في تفسير المفردة القرآنية.

هذا وجدير بالذكر أنه لم تخل التأصيلات الجاحظية أيضا عما جاءت به النظرية السياقية الغربية عما "يسمى بالمحور الاستبدالي أو العمود بمحور التخيير، وهو مصطلح مرادف عنده لعبارة الالفاظ المتخيرة أي تخير الالفاظ للمعاني (لكل مقام مقال ولكل صناعة شكل) فكل نصوصه التي تحدث فيها عن مراعاة الجانب النصي في ظل الملابسات المقامية المصاحبة له تدخل ضمن مبدأ عملية الاختيار، أي المستوى العمودي للكلمات داخل الجملة، هذا المبدا الذي نظر له الدرس اللغوي الحديث فيما بعد، وقال به لسانيو المدرسة الانجليزية فيما يسمى بالعلاقات الاستبدالية او الجدولية "[٢] فالجاحظ من خلال ما سبق أصل لجانب لساني حداثي مهم جدا، وهو الجانب التداولي الذي يعنى بدراسة اللغة في الاستعمال، ولا يقف باللغة عند حد بنيتها التركيبية أو النصية فقط، فالوصول إلى مقصد الخطاب أو الدلالة التبليغية المرادة من النص على وجه الدقة تستلزم وضعه في إطار تداولي (تواصلي) تتفاعل فيه أقطاب عملية التواصل من مرسل ومستقبل ورسالة، وما يحمله كل طرف من أحداث وملابسات وقرائن مقالية ومقامية، وبهذا التأصيل يكون اللغويون العرب - متمثلا في فكر الجاحظ- عند تفطنهم لدور العناصر المقالية والمقامية في تفسير ما أشكل من النصوص، وفهم فحوى التراكيب اللغوية

(١) دراسة المعنى عند الاصولين لطاهر سليمان حموده: ٢٢٤

(٢) ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب -دراسة من منظور لساني-: ١٢٣

"متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم؛ لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"[1].

ونتيجة لكل ما سبق من نصوص تراثية تأصيلية لفكر الجاحظ في الحيوان وضح أن الجاحظ كان يحيط علما بمفوم السياق وأنواعه، وكذلك تفطن للدور الذي تؤديه قرائنه المقالية والمقامية في العملية التلبيغية وتوجيه الخطاب، بل وسبق المحدثين في جعل السياق معتمدا على اللفظ والإشارة والصوت والحال والخط، وهو ما عرف فيما بعد بالسياق اللغوي وغير اللغوية، كما جعل معهود الخطاب العربي ضابطا لعملية التفسير السياقي.

وعليه فإنه يمكن القول بأن النظرية السياقية العربية، نظرية منضبطة بمرجعيتها العربية لأصول أصحاب تلك اللغة، فعملية تفسير النصوص في ظل النظرية السياقية العربية تخضع لمعهود خطاب العرب، ومجاري كلامهم كما أكد الجاحظ على ذلك في أكثر من موضع، والاعتداد بسنن العرب في كلامهم كقرينة مقامية يعول عليها في تفسير النصوص، فدلالة السياق في النظرية العربية دلالة منضبطة، جاءت خادمة لمعنى النص، تأخذ بنظر الاعتبار حال المخاطبين، ومعهود كلام العرب في محاوراتهم، أمَا وأن يطلق العنان للاستعمال وحده - كما يرى المحدثون أن اللفظ لا يعرف معناه إلا في التواصل فقط غاضين الطرف عن معناه المعجمي - بتحديد المعنى فلا يؤمن على النصوص ودلالتها من تحريف الكلم عن موضعه، فالمرجعية للعهد العرفي لأصحاب اللغة الأول هو الذي يضبط عملية التأويل من الانزلاق والشطط، ولا يترك المجال للاستعمال وما يطرأ عليه من انحطاط أحيانا أو تطور أو تحريف أو أي شكل من أشكال البعد عن الفصاحة لتفسير النص والوقوف على معناه.

ومن ثم فإن البحث يخلص إلى القول -مطمئنا- بأن الجاحظ يعد -بحق ومن دون أي مغالاة- من رواد النظرية السياقية، فالطرح الغربي للنظرية السياقية

(١) اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٣٧.

بما فيها من مفاهيم وأسس ومباديء لم يكن جديدا أو غريبا على الفكر العربي، وإنما هي استمرار للجهد الفكري التراثي، وإن كانت النظرية الغربية صيغت في شكل نظرية علمية ممنهجة، فإن النظرية العربية تتسم بعمق التناول، وشمولية التأصيل، ودقة التنظير، حتى وإن كان ينقصها حد تعريف لها، وعنصرتها بشكل نظري ممنهج فهذا مرجعه إلى الطابع الموسوعي للتصنيف اللغوي الذي تميز به تراثنا العربي.

الخاتمة

وختاما ... فالحمد لله على التمام، والحمد لله الذي يسر وأعان ... وبعد رحلة ليست بالقصيرة -عام أو يزيد - لازمني فيها عون الله وحسن تدبيره عشت مع كتاب الحيوان بأجزائه الثمانية، ووقفت على نصوص لبعض القضايا اللغوية - والتي تشكل جزءا من الفكر اللغوي للجاحظ- اقتصر البحث منها على دراسة الفكر التأصيلي للجاحظ في قضية السياق وما يتصل به من ظواهر لغوية كظاهرة الاشتراك اللغوي، ومن خلال التأصيلات الجاحظية التي نوقشت في المباحث السابقة ظهر للبحث ما يلي:

- أن فكر الجاحظ في الحيوان يحيل وبصورة سليقية غاية في دقة التعبير والتنظير تتفق وحيثيات الدرس اللغوي الحديث في حديثه عن هذه النظرية، فالفكر التراثي العربي متمثلا في فكر الجاحظ في مصنفه الحيوان سبق الطرح الغربي الحديث في التأسيس والتنظير لهذه النظرية، وإن اختلفت المصطلحات المعبرة عنها؛ لاختلاف طبيعة ومنهج وغاية الدراسة بين القدامى والمحدثين، فتصانيف القدامى تتميز بطابعها الموسوعي، فما أصل له الجاحظ في هذا البحث اتسم بالعمق والدقة والشمولية في التأصيل والتنظير والاستشهاد والإحالة يجعل البحث يرى أن إطلاق مصطلح (نظرية) على فكر الجاحظ في السياق يبخسه حقه دون أية مبالغة.

- الجاحظ أشبع الاعتماد على السياق بعناصره تأصيلا وتطبيقا، مع أنه لم يتعرض لذكر كلمة (سياق) وإنما عبر عنها بألفاظ تتفق في دلالتها مع هذا المصطلح الحديث، كذا لم يضع حدا اصطلاحيا له مثله في ذلك مثل باقي اللغويين القدامى، وإن كانوا من أسبق الطوائف العلمية التي اهتمت بالدلالة السياقية ووظفتها توظيفا غاية في الدقة والتفصيل في معالجة النصوص وتفسيرها على النحو السابق، وعليه فإنه يمكن القول بأن الجاحظ تبلور لديه مفهوم السياق وما اشتمل عليه من عناصر بكل ما يقتضيه من مصطلحات حديثة من مثل: (مكون اجتماعي، إطار تواصلي، منحى أو معطى تداولي، سياق لغوي، سياق غير لغوي، سياق ثقافي، عاطفي، صوتي).

- أن تحليل النصوص التراثية الممثلة لفكر الجاحظ في حيوانه ظهر من خلالها أنه تعامل مع اللغة تعاملا حيا وفعالا، فإشارات الجاحظ في هذه النصوص التنظيرية والتطبيقية تبين أن اللغة لا تنفك عن ملابسات استعمالها، ظهر ذلك من خلال متابعته لمجريات الواقع اللغوي المستعمل، عند تفسيره للمفردات القرآنية، فخرج بدلالة اللفظة عما يقتضيه ظاهرها إلى ما يقتضيه الاستعمال السياق، رابطا في ذلك السلوك اللغوي بالمحيط الخارجي وجميع ملابساته الاجتماعية، والنفسية والثقافية والفكرية، متيقنا بأن المعنى المنضبط هو الناتج عن معطيات كل من النظام الداخلي للبناء التركيبي للنص ومعطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي، منخرطا في البيئة العربية التي دارت فيها المحاورات الكلامية عند حديثه عن ضرورة التعويل على معهود الخطاب العربي كمرجعية لغوية اجتماعية في فهم النصوص وضبط عملية التأويل، ولعل هذه المرجعية تفتقدها النظرية الغربية.

- أن ما أصل له الجاحظ في هذه النظرية الدلالية هو في الحقيقة يصور المعطيات التداولية للخطاب فهما وتأصيلا وتنظيرا وتطبيقا؛ إذإن الفهم المنضبط للنص لا يتحقق إلا باستحضار جميع مكونات الخطاب اللغوية منها والمقامية، مما يجعل الجاحظ بهذا الفكر التراثي لغويا تداوليا بالمفهوم اللساني الحديث.

- أن هذه المعطيات التداولية للخطاب أو هذا المنحى التداولي الذي يعنى بدراسة اللغة في الاستعمال يتجلى في نصوص الجاحظ من خلال حديثه تنظيرا وتطبيقا عن أطراف العملية التواصلية، وأثر العناصر السياقية المقالية والمقامية في توجيه المعنى "أصبح اليوم حقيقة ماثلة في صلب الدرس اللغوي الحديث خاصة في بعده الوظيفي التداولي"[(١)].

- أن الجاحظ كان على وعي بمعطيات الدرس التداولي الحديث أيضا حينما تضمن حديثه عن القوة الإنجازية عند تطرقه لتفسير المفردة *القرآنية*،

(١) السياق اللغوي وغر اللغوي في إبراز المعنى التداولي في العربية د/عبد القادر جعيد، بحث منشور في مجلة إشكالات في اللغة والادب، مجلد ١٠، ع: ١، ٢٠٢١م ص: ١٢٥٦.

والاستعمالات المجازية المتعددة لبعض الألفاظ، والتي يقتضيها السياق ومقتضيات الأحوال التي تصاحب البيئة اللغوية للنص، فالجاحظ أراد هنا أن يشير إلى أنه من لم يلحظ سياقية النص القرآني، وما يقتضيه أحيانا من مخالفة مقتضى الظاهر (الوضع المعجمي) إلى وضع استعمالي مجازي (عرفي) اقتضته قرائن الأحوال المقامية، لم يأمن الغلط في التأويل، محرفا الكلم عن موضعه، فحديث الجاحظ في هذه التفسيرات يدل على أن الكلام المنقول (فعل القول) يحمل دلالات مختلفة (الفعل المتضمن) يحددها حال المتكلم (الفعل الناتج).

- أن الجاحظ عبر عن التعدد أو الاشتراك اللغوي بألفاظ غاية في الدقة مثل: (الاحتمال / له وجوه / يأتي على ضروب/ احتمالات، يؤول) ... هذه الألفاظ جميعها تفيد أن هذا الاشتراك كان بسبب عارض (السياق) فلسبب ما تحمل اللفظ هذه الأوجه من هذه الدلالات، وليس الاشتراك الدلالي هو الأصل في الوضع اللغوي.

- أن السبب في وقوع الاشتراك في اللغة عند الجاحظ كان لاختلاف مساقات الورود (السياق الاستعمالي) أو الاستعمال المجازي، فالمستقرئ لنصوص الجاحظ في الحيوان يراه يؤكد في أكثر من موضع أن الألفاظ تتعرض بسبب التركيب، وورودها في سياقات مختلفة إلى وجوه كثيرة من التغير الدلالي، هذه الأوجه الدلالية المتعددة ضابطها النظر في القرائن ومقتضيات الأحوال والمقامات، وعليه فإن اللفظ الواحد الموضوع لعدة دلالات عن طريق الحقيقة هو الذي يندرج فقط تحت ظاهرة الاشتراك اللغوي.

- أن التأصيلات الجاحظية لم تخل -أيضا- مما جاءت به النظرية السياقية الغربية بما "يسمى بالمحور الاستبدالي أو العمود بمحور التخيير، وهو مصطلح مرادف عنده لعبارة الاللفاظ المتخيرة أي تخير الالفاظ للمعاني (لكل مقام مقال ولكل صناعة شكل) فكل نصوصه التي تحدث فيها عن مراعاة الجانب النصي في ظل الملابسات المقامية المصاحبة له تدخل ضمن مبدأ عملية الاختيار، أي المستوى العمودي للكلمات داخل الجملة، هذا المبدا الذي نظر له الدرس اللغوي الحديث فيما بعد، وقال به لسانيو المدرسة الانجليزية فيما

يسمى بالعلاقات الاستبدالية او الجدولية "[١]

- أن النظرية السياقية العربية، نظرية منضبطة بمرجعيتها العربية لأصول النظم عند أصحاب تلك اللغة، فعملية تفسير النصوص في ظل النظرية السياقية العربية تخضع لمعهود خطاب العرب، ومجاري كلامهم كما أكد الجاحظ على ذلك في أكثر من موضع، والاعتداد بسنن العرب في كلامهم كقرينة مقامية يعول عليها في تفسير النصوص، فدلالة السياق في النظرية العربية دلالة منضبطة، جاءت خادمة لمعنى النص، تأخذ بنظر الاعتبار حال المخاطبين، ومعهود كلام العرب في محاوراتهم، أمَا وأن يطلق العنان للاستعمال وحده - كما يرى المحدثون أن اللفظ لا يعرف معناه إلا في التواصل فقط غاضين الطرف عن معناه المعجمي - بتحديد المعنى فلا يؤمن على النصوص ودلالتها من تحريف الكلم عن موضعه، فالمرجعية للعهد العرفي لأصحاب اللغة الأول هو الذي يضبط عملية التأويل من الانزلاق والشطط، ولا يترك المجال للاستعمال وما يطرأ عليه من انحطاط أحيانا أو تطور أو تحريف أو أي شكل من أشكال البعد عن الفصاحة لتفسير النص والوقوف على معناه.

ومن ثم فإن البحث يخلص في النهاية إلى القول -مطمئنا - بأن الطرح الغربي للنظرية السياقية بما فيها من مفاهيم وأسس ومباديء لم يكن جديدا أو غريبا على الفكر العربي وإنما هو استمرار للجهد الفكري التراثي، وإن كانت النظرية الغربية صيغت في شكل نظرية علمية ممنهجة، فإن النظرية العربية تتسم بعمق التناول، وشمولية التأصيل، ودقة التنظير، حتى وإن كان ينقصها حد تعريف لها، وعنصرتها بشكل نظري ممنهج فهذا مرجعه إلى الطابع الموسوعي للتصنيف اللغوي الذي تميز به تراثنا.

هذا ومما يوصي به البحث سبر أغوار النصوص في كتاب الحيوان، واستكمال دراسة عقل الجاحظ، والوقوف على ما انطوى عليه فكره اللغوي من آراء وتصورات تحليلية وتأصيلية، ووجهات نظر ثاقبة متعلقة بقضايا لغوية ولسانية هامة، تتضمنتها نصوص جاحظية مغمورة بين ثنايا قصصه ونوادره وأشعاره

(١) ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب -دراسة من منظور لساني-: ١٢٣

وأحاديثه وأمثاله واستطراداته على مدار الأجزاء الثمانية جديرة بالتحليل والبحث والدراسة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الباحثة

المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

- الاتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة: د/حليمة أحمد عمايرة، دار وائل للنشر والتوزيع، ط: (١) ٢٠٠٦م.
- أدب الكاتب لابن قتيبه(ت: ٢٧٦هـ) تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة.
- الأعلام للزركلي (ت: ١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢م.
- البحر المحيط لأبي حيان(ت: ٥٧٤٥هـ) تح/ صدقي جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي(ت: ٧٩٤هـ) تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩١م.
- البيان والتبيين للجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور(ت: ١٣٩٣هـ) الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤ هـ.
- تفسير القرطبي (ت: ٦٧١هـ)تح/أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة.
- الحيوان للجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) تح/عبد السلام هارون، دار الجيلسنة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الخصائص لابن جني(ت: ٣٩٢هـ) تح/محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت.
- دراسة المعنى عند الاصوليين لـ: د/طاهر سليمان حموده، الدار الجامعية للطباعة والنشر.
- سير أعلام النبلاء للذهبي (ت: ٧٤٨هـ) دار الحديث- القاهرة، ط: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد، دار النشر: دار الكتب العلمية.
- طبقات المفسرين للداوودي المالكي (ت: ٩٤٥هـ)الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر.
- علم الدلالة: أحمد مختار عمر: ٦٨، عالم الكتب، ط: ٥، ١٩٩٧م.
- عيون الأخبار لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) دار الكتب العلمية -بيروت: ١٤١٨ هـ.
- القرائن بين اللغويين والأصوليين لنادية رمضان النجار، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ٢٠١٥.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (ت: ٧١١هـ) تح/ روحية النحاس، رياض عبد الحميد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، (ط) الأولى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤
- المستصفى للغزالي (ت: ٥٠٥هـ) تح/ محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، (ط): الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي(ت: ٦٢٦)دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم لـ/د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب -

القاهرة، (ط): الأولى، ٢٠١٠ م.
- المعنى اللغوي دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقيا د/ محمد حسن جبل: ١٦٨ مكتبة الأداب ط: (٢)، ٢٠٠٩م.
- مفتاح العلوم للسكاكي(ت: ٦٢٦هـ)ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (ط) الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٥م.
- الموافقات للشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) تح/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، (ط) الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)تح/ دائرة المعرف النظامية - الهندالناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م.
- اللغة العربية معناها ومبناها لـ: د/ تمام حسان عمر، عالم الكتب، (ط): الخامسة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- اللغة والمعنى والسياق لجون لاينز، ترجمة د.عباس صادق، طباعة ونشر: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط: (١)، ١٩٨٧م.
- وفيات الأعيان ابن خلكان البرمكي (ت: ٦٨١هـ) تح/ إحسان عباس، دار صادر - بيروت الجزء الثالث الطبعة: ١٩٠٠م.

الرسائل العلمية:

- ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب -دراسة من منظور لساني- أطروحة مقدمة لنيل درجة التخصص للباحثة/ نعيمة بن ترابو لكلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير - بسكرة- ٢٠١٠م.
- النظرية السياقية في الدرس اللساني قديما وحديثا دراسة مقارنة لناريمان براح، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في كلية الآداب واللغات، جامعة العربي، الجزائر، ٢٠١٥م.

الدوريات:

- أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى لـ: د/ محمد سالم صالح، مجلة البحوث والدراسات في الآداب والعلوم والتربية، ٢٠٠٧م.
- الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة ليحيى أحمد، مجلة عالم الفكر، بيروت، المجلد (٢) العدد (٣) ١٩٨١م.
- السياق اللغوي في الدرس اللساني الحديث لغنية تومي، مجلة المخبر، الجزائر، ع: (٦) ٢٠١٠م.
- مباديء الفكر الاعتزالي في تفسير الكشاف للزمخشري - مبدأ العدل أنموذجا- مجلة الآداب

والعلوم الاجتماعية، المجلد: ١٨، ع: ٢، ٢٠٢١م.
- ملامح النظرية السياقية عند الإمام الشاطبي لعبيدة منيرة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع: (١٤) الجزء الثاني: ٢٠١٨م.
- النظرية السياقية بين البداءة والحداثة دراسة وصفيةلـ: د/حازم علاوي، مجلة دواة، المجلد التاسع ع: (٧) ذو الحجة ٢٠٢١م.
- نظريات دراسة المعنى بين التراث اللغوي العربي والدرس اللغوي الغربي شافي محمد سيف، حوليات اداب عين شمس، المجلد ٤٨عدد يناير-مارس ٢٠٢٠م.
- نظرية فيرث السياقية بين الأصالة والتجديد، أحمد إحيمدات، مجلة (الضاد) ماليزيا، ٢٠١٥م.
- نظرية المعنى في الفكر النقدي عند العرب من الممارسة إلى للتنظير -دراسة تحليلية نقدية- دكتور/ عبد الفتاح جحيش كلية الاداب واللغات الجزائر ٢٠١٧م.

References

1. Grammatical trends among the ancients, an analytical study in light of contemporary curriculam: Dr. Halima Ahmed Amayra, Dar Wael for Publishing and Distribution, Edition: (1) 2006 AD.
2. Literature of the Writer by Ibn Qutaybah (d. 276 AH), edited by: Muhammad Al-Dali, Al-Risala Foundation.
3. The Ocean Sea by Abu Hayyan (d. 745 AH), edited by Sedqi Jamil, Dar Al-Fikr - Beirut, 1420 AH.
4. The proof in the sciences of al-Qur'an by Al-Zarkashi (d. 794 AH), edited by Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Dar Al-Ma'rifa - Beirut, 1391 AD.
5. Statement and clarification by Al-Jahiz (d. 255 AH), Al-Hilal House and Library, Beirut, 1423 AH.
6. Liberation and Enlightenment by Al-Tahir bin Ashour (d. 1393 AH), Dar Al-Tunisia, Tunisia, 1984 AH.
7. The interpretation Al-Qurtubi (d. 671 AH), edited by Ahmed Al-Baradouni and Ibrahim Tfayesh, Dar Al-Kutub Al-Misria - Cairo.
8. The Animal by Al-Jahiz (d. 255 AH), edited by Abdul Salam Haroun, Dar Al-Jailsana, 1416 AH - 1996 AD.
9. The Characteristics by Ibn Jinni (d. 392 AH), edited by Muhammad Ali al-Najjar, World of Books Beirut.
10. A study of meaning according to fundamentalists, by: Dr. Taher Suleiman Hamouda, University House for Printing and Publishing.
11. The biographical studies of noble figures by Al-Dhahabi (d. 748 AH), Dar Al-Hadith - Cairo, Edition: 1427 AH-2006 AD.
12. Gold Nuggets in the news from gold by Ibn al-Imad, publishing house: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
13. Classes of Interpreters by Al-Dawoodi Al-Maliki (d. 945 AH) Publisher: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya - Beirut. Review the copy and adjust its flags: a committee of scholars under the supervision of the publisher.
14. Semantics: Ahmed Mukhtar, age: 68, Alam al-Kutub, Edition: 5, 1997 AD

فهرس الموضوعـات

الموضـــــوع **الصفحة**

مقدمة ٧٢٩
التمهيد..... ٧٣٧
أولا: الجاحظ ومصنفه الحيوان ٧٣٨
ثانيا: أسس (آليات) التأويل في فكر الجاحظ الاعتزالي في الحيوان..... ٧٤١
نظريات المعنى ٧٤٦
المبحث الأول: التنظير لمفهوم السياق وعناصره عند الجاحظ..... ٧٥٠
المطلب الأول: مصطلحات تعبر عن السياق وعناصره عند الجاحظ:..... ٧٥١
المطلب الثاني: محددات الدلالة (صور العناصر السياقية) عند الجاحظ..... ٧٥٣
المطلب الثالث: التواصل غير اللغوي (القرائن المقامية) عند الجاحظ..... ٧٥٦
المطلب الرابع: الشق الاجتماعي (المكون الاجتماعي / المنحى التداولي للغة) عند الجاحظ..... ٧٦١
المطلب الخامس: الجانب التطبيقي لتداولية الجاحظ ودراسته للغة في بيئتها الاجتماعية ٧٧٢
المطلب السادس: الجانب اللغوي (النصي) للسياق عند الجاحظ..... ٧٧٣
المطلب السابع: التركيب (اختلاف مساقات الورود) وأثره على دلالة الألفاظ..... ٧٧٧
المطلب الثامن: السياق وتفسير المفردة القرآنية عند الجاحظ..... ٧٨٢
المبحث الثاني: الاشتراك اللغوي عند الجاحظ..... ٧٩٠
المطلب الأول: تأصيل لظاهرة الاشتراك اللغوي عند الجاحظ (صوره، سبب وقوعه)..... ٧٩٠
المطلب الثاني: بحث الألفاظ التي تعددت دلالتها بفعل التركيب (اختلاف مساقات الورود)، والاستعمال المجازية ٧٩٨
المبحث الثالث: مواطن التلاقي بين تأصيل الجاحظ للسياق والنظرية الغربية ٨١١
الخاتمة..... ٨١٧
المصادر والمراجع ٨٢٢
فهرس الموضوعـات ٨٢٦